أمــل دنقـل

شاعر الوجــدان والتمــرُّد

موسوعة أعلام الشعر العربي الحديث

أمل دنقل

شاعر الوجدان والتمرُّد

إعداد ودراسة: هاني الخير

أعلام الشعر العربي الحديث /أمل دنقل/

شاعر الوجدان والتمرُّد

إعداد ودراسة: هاني الخير

الطبعة الأولى: ٢٠٠٨.

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:

دار ومؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار ومؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا ـ دمشق ـ جرمانا

هاتف: ٥٦٢٧٠٦٠ ـ تلفاكس: ٥٦٣٢٨٦٠

ص. ب: ٢٥٩ جرمانا

من أولويات وظائف الشعر أن يوظف في خدمة القضايا الوطنية، في الدفاع عن حق الشعب وكرامته وعزته ومجده وتقدمه، وهو ليس شعارات فارغة تطلق في المناسبات، إنما هو دعوة إلى التغيير وإيقاظ روح الشعب، وتحريضه على الثورة والتمرد والرفض والمقاومة.

أمل دنقل

إضاءة

أمل دنقل... شاعر الوجدان والتمرد

في /٢١/ أيار (مايو) عام /١٩٨٣/ توقف قلب الشاعر المبدع أمل دنقل عن الحركة، بعد صراع مرير مع غول السرطان المخيف، استمر ثلاثة أعوام، وبرحيله خسر الشعر العربي المعاصر شاعراً كان له حضوره المتميز في الحياة الثقافية العربية، لا سيما وأن شعره كان تاريخاً حياً لقضايا الأمة العربية، لذلك عاش شامخ الهامة، نبيل الشعور، عظيم الوجدان والمشاعر الإنسانية العليا، وما زالت صورته المشرقة هذه ماثلة في الضمائر والقلوب والأفئدة وبين متذوقي شعره.

يقول الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي في شهادة له عن مأساة صديقه أمل دنقل:

«كان السرطان يأخذ من جسده الناحل، فتزداد روحه تألقاً وجبروتاً، حتى كان باستطاعة زواره وعائديه أن يروا صراعه مع الموت رأي العين.. صراع بين متكافئين، الموت والشعر. وفي اللحظة التي وقع فيها الجسد بكامله بين مخالب الوحش، خرج أمل دنقل من الصراع منتصراً.. لقد أصبح صوتاً محضاً، صوتاً عظيماً سوف يتردد أصفى وأنقى من أي وقت مضى».

وفي هذا الشأن تقول السيدة عبلة الرويني زوجة الشاعر: «كان الطبيب المعالج مغرماً بالسياسة يأتي للكشف مردداً قصيدة أمل الشهيرة:

أبانا الذي في المباحث

كيف تموت

وأغنية الثورة الأبدية

ليست تموت؟

أسأل الطبيب: لماذا أطباء السرطان يميلون في اتجاه اليسار؟

يجيبني ضاحكاً: عندما يهاجم السرطان شاعراً فلا مفر من تدمير الواقع.

ولم يدمر الواقع بل تم تدمير أمل (بالبلاتنيوم) تلك المادة المستخدمة في تفجير القنبلة الذرية.. وكنت أردد أن أمل بحاجة إلى نسبة أكبر من (البلاتينوم) لأنه أقوى من القنبلة الذرية.

وكان طبيبه يردد أنه ليس شاعراً تاريخياً فحسب، بل ومريض تاريخي أيضاً.. وكنا نفرح بهذه العبارات القاتلة لنداري المأساة.

كان أمل مريضاً تاريخياً بالفعل.. فقد تمت في جسده تجربة علاج إشعاعي هي الأولى من نوعها في الشرق الأوسط، حصل فيها على أكبر نسبة إشعاع ذري مكثف تعطى لمريض في جرعة واحدة، حتى إن الطبيب سألني: هل توافقين على تصوير جسد أمل داخل التجربة؟!

وأجبت دون تردد: إن ذلك يسعد أمل شخصياً إذا كان سيضيف للتجربة العلمية.

كنت ارتعد حول التجربة بينما راح الطبيب في سعادة بالغة يلتقط صوراً عديدة للجسد المغيّب داخل الإشعاع الذري.. من خلال دائرة تلفزيونية مغلقة، توقع الطبيب إثر التجربة حدوث انهيار حاد حتى أنه جنّد العديد من الأطباء والممرضات لمتابعة انهيار الجسد، طبيب مختص بالقلب، ومحاليل غلوكوز، وأكياس دم، وأوكسجين، وحُقن، وأدوية عديدة لمواجهة أية ظروف طارئة.

وخرج أمل من التجربة منتصراً..

وخرج الطبيب مدهوشاً.

يبتسم أمل بل ويسعد بالتجربة ويفاخر بأنه أول مصري، بل وأول عربي تناول تلك الجرعة المكثفة من الإشعاع الذري، واستطاع أن يفوق خيال العلم الطبي في احتمالها».

وتُنهي السيدة عبلة الرويني حديث الذكريات المفجعة قائلة: «بدأت أجهزة جسده تتوقف عضواً عضواً، فلا يتمكن من التقلب من الجانب الأيمن إلى الجانب الأيسر، بل حتى دون أن يستطيع رفع نصفه الأعلى للجلوس فوق سريره.

كانت يداه الممدودتان، تطالبني بتحريكه (حين عجز عن الكلام) هي أقصى صور العذاب التي يمكن أن أراها.

انخفضت نسبة الدم **فسأل أمل الطبيب:**

ـ هل يمكن نقل دم إليَّ؟

قال الطبيب: جسدك لم يعد يحتمل!

ـ هل يمكن نقلي إلى مستشفى القصر العيني لإجراء عملية غسيل الكلى؟

قال الطبيب الشاب والذي لم يباشر يوماً علاج أمل:

ـ لا أعتقد فقد أُصبت بفشل كلوي!

كان ذلك يعني الموت.

وصرختُ في وجه الطبيب:

ـ لا يمكن أن تكون إنساناً!

قال طبيب آخر بجواره:

ـ يمكنكم نقله إلى بلدته إذا أردتم!

وفهمتُ عبارته لكني سألته بحدة:

ـ لماذا؟!

لم يستطع الطبيب إجابتي، وقال:

ـ مجرد اقتراح!

ردد بعض الأصدقاء اقتراح الطبيب، فرفضتُ بشدة مردّدة:

ـ ما زال اللّه في السماء.

....

اقتربت منه:

ـ هل أنت حزين؟

أشار وهو عاجز عن الكلام تماماً بأن نعم.

إنها المرة الأولى التي يقول فيها (نعم).. إنه القرار الذاتي بالموت.

يتوقف هذا المشهد كثيراً أمام عيني، كأنه ينقل سره إلي، فاقتنع معه بقرار الموت، وميراث الحزن الذي لا ينتهي.

(حين تريني عاجزاً، تمني لي الموت.. فهو رحمتي الوحيدة)، هكذا أعلن أمل الموت، لكنه كطبيعته ما زال حتى النفس الأخير، يحلم بالمقاومة، في منتصف الليل، قبيل وفاته بساعات قليلة، زاره ناصر الخطيب مدير مكتب جريدة الرياض بالقاهرة، أيقظ أمل من غيبوبته، وهمس في أذنه باكياً:

ـ أمل قاوم.

فتح أمل عينيه وبصعوبة في النطق أجاب: لا أملك سوى المقاومة.

ثم راح في غيبوبة.

في الثالثة صباحاً، حاولَ نزع حُقنة الغلوكوز من يده، رفضت الممرضة وكذلك شقيقه نزع الحقنة، وامسك كل منهما بيديه بقوة حتى لا يتمكن من انتزاعها.

ولم يكن يقوى على الصراخ في وجوههم، نظر إلي، كانت عيناه تطلبان مني الراحة.

نزعتُ حقنة الغلوكوز من يده: يمكنك أن ترتاح.

أغمض عينيه في هدوء، ودخل في غيبوبة أخيرة.

السبت ٢١ أيار (مايو):

الثامنة صباحاً

كان وجهه هادئاً وهم يغلقون عينيه

وكان هدوئي مستحيلاً، وأنا افتح عيني.

وحده السرطان كان يصرخ.

ووحده الموت كان يبكي قسوته».

ولد أمل دنقل عام /١٩٤٠ م/ في بلدة «**القلعة**» في محافظة (**قنا**) في **صعيد مصر**، لأب كان الوحيد في قريته الذي حصل، في نفس العام، على إجازة العالمية من الأزهر. توفي والده عام /١٩٥٠/ وعمر الشاعر عشر سنوات فتحمل شظف العيش، لأن أسرته خسرت ممتلكاتها من جراء طمع الأقارب من الورثة، ثم انتقل الشاعر إلى القاهرة للدراسة في كلية الآداب، حيث تلقى تعليمه لعام دراسي واحد، ثم انقطع عن الدراسة ليعمل كاتباً في محكمة (قنا)، ثم عمل في مصلحة الجمارك لعدة أعوام، بعدها التحق بوظيفة في منظمة التضامن الآسيوي ـ الإفريقي.

كان راتب أمل الشهري من تلك الوظيفة لا يتجاوز الثلاثين جنيهاً، بل إن العمل طوال حياته لم يكن شاغله، فقد كان دائماً موظفاً فاشلاً لا يذهب إلى مواعيد العمل أبداً.

إن الوظيفة أو المال أو البيت أو الثروة أو أي طموح مادي أو حتى معيشي لم يكن من شواغله، فهمه الوحيد، وطموحه الأكبر، أن يعش لحظة الإيقاع النادرة بين نثر الحياة اليومية وتوتر الشعر.

وكان أمل دنقل يفاخر بأن نسبه يعود إلى قبيلة قريش وهو قد كتب مقالات عدة عن قريش ـ ولعل اعتقاده بأنه من نسب يرجع إلى الأشراف، جعله يمثل في شعره نموذجاً للبطل الذي يؤمن بقيم نبيلة لا يجد تحقيقاً لها في المجتمع.

وهكذا فإن الشاعر ولد في بداية الحرب العالمية الثانية، ونشأ في ظل احتدام الصراع السياسي والاجتماعي في مصر ما بعد الحرب، والسعي إلى نيل الاستقلال

والتخلص من الاستعمار البريطاني، ومن ثم مجيء الثورة المصرية عام /١٩٥٢/ بقيادة جمال عبد الناصر، وكذلك شهد المد اليساري وتقارب مصر من المعسكر الاشتراكي بعد عام /١٩٥٥/، ثم رحيل عبد الناصر عام /١٩٧٠/، ومجيء السادات الذي رسّخ الانفتاح الاقتصادي، والتقرب من الولايات المتحدة الأمريكية الذي أدّى إلى توقيع معاهدة السلام مع العدو الإسرائيلي، على حد تعبير الدكتور ميشال خليل جحا.

ويضيف الدكتور ميشال:

«نظم الشعر في فترة زمنية قصيرة هي فترة الهزائم التي لا تزيد على عقدين:

عقد الستينات والسبعينات، ولكنها فترة مهمة جداً من تاريخ مصر والأمة العربية هي فترة الهزيمة والاهتراء والتفسخ، وعكس في شعره كل ذلك فجاء شعره خير مُعبّر عن تطلعات الشعب المصري وهمومه وآماله وطموحاته»، تقول عنه زوجته عبلة الرويني:

«عاشق للحياة، مقاوم عنيد، يحلم بالمستقبل والغد الأجمل مع قدر كبير من العدمية يزدري فيها كل شيء، ويدمّر كل شيء، ويؤمن بحتمية موته، ولقد أدرك أمل دائماً أن قوته الحقيقية هي شعره، ولهذا لم يتخل في أية لحظة من لحظات تعامله وحياته، عن سلاحه الوحيد كتابة الشعر، إن المدخل الحقيقي إلى شخصية أمل يظل دائماً هو موهبته... فهي التوازن، والسلاح القوي المشهر والكبرياء، القوة والوضوح.. الصدق وشرف القلب الدائم.. والثورة»..

أما لغة أمل دنقل الشعرية، فهي لغة عربية سليمة وعذبة، وهو في شعره استعان برموز التراث العربي، ووظّفها في شعره، مما جعله يقترب من قلوب الناس، الذين وجدوا في شعره: الروعة والبساطة والصدق والعمق، والتأثير في الوجدان.

وكان الشاعر الراحل يعي هذه الحقيقة، ويعرف وظيفة الشعر، وما يريد هو من الشعر، فكان يقول:

«إن الشاعر له وظيفة اجتماعية أساساً، لا بد له من موقف اجتماعي، الموقف السياسي موقف تالٍ لذلك، كل الشعر الذي ظهر وتبنى شعارات سياسية زاعقة لا

يحمل الأسس الفنية لتقويمه.. كذلك الشعر الذي يترجم عناوين مانشيتات الصحف التي تتحدث عن إنجازات هو شعر ساذج وتابع للأفكار التي تُطرح.. أنا لا أعتبر نفسي شاعراً سياسياً وإنما شاعر وطني.. الإحساس بالوطن.. عيني على المجتمع.. والأرض.. والناس... والفرح.. والماضي والحاضر والمستقبل».

والحق يقال.. فإن شاعرنا الراحل يهتم بالمباشرة بالرغم من أنه من أكثر الشعراء استخداماً للرموز، وهو إلى ذلك شاعرٌ مُحرّض ومن دعاة الثورة والرفض والتغيير، وهو شاعر قومي يؤصل قيماً قومية داخل الإنسان وانتماء هذا الإنسان إلى تاريخه وتراثه وحضارته، فلذلك يُكثر من استخدام الرموز والأساطير المستقاة من التاريخ العربي، من أجل استنهاض القيم التراثية والتاريخية في أذهان الناس، كما أنه لجأ إلى التضمين في شعره، بحيث يأتي التضمين في السياق الشعري، منسجماً مع المعنى الذي يرمي إليه:

والتينِ والزيتونْ

وطورِ سنين، وهذا البلدِ المحزونْ

لقد رأيتُ ليلةَ الثامنِ والعشرينَ..

من سبتمبر الحزين:

رأيتُ في هُتاف شعبي الجريح

(رأيتُ خلفَ الصورة)

وجهَكِ.. يا منصورة،

وجهَ لويس التاسع المأسور في يدي صبيح

ـ وقد ترك شاعرنا الدواوين التالية:

ـ مقتل القمر.

ـ البكاء بين يدي زرقاء اليمامة.

ـ تعليق على ما حدث.

ـ العهد الآتي.

ـ أقوال جديدة عن حرب البسوس.

ـ أوراق الغرفة (٨).

ـ قصائد متفرقة وتشمل قصائد الشاعر الأخيرة التي أنجزها قبل رحيله، منها هذه الأبيات المؤثرة:

في غرفة العمليات

كل نقاب الأطباء أبيض

تاج الحكيمات أبيض أردية الراهبات

الملاءات لون الأسرة

أربطة الشاش والقطن

قرص المنوم أربطة المصل

كوب اللبن

كل هذا يشيع بقلبي الوهن

كل هذا البياض يذكرني بالكفن

فلماذا إذا مت

يأتي المعزون متشحين

بشارات لون الحداد

هل لأن السواد

هو لون النجاة من الموت

لون النميمة ضد الزمن

بين لونين : استقبل الأصدقاء

الذين يرون سريري قبراً

وحياتي دهراً

وأرى في العيون العميقة

لون الحقيقة.. لون تراب الوطن

ـ وكذلك هذه الأبيات الحزينة:

كل باقة

بين إغماءة وإفاقه

تتنفس مثلي بالكاد ـ ثانية

وعلى صدرها حملت ـ راضية

اسم قاتلها في بطاقة !

ينقسم شعر أمل دنقل، كما يرى الدكتور ميشال خليل جحا، إلى أربعة اتجاهات متداخلة:

الاتجاه الأول:

هو **الاتجاه الرومانسي** الذي يغلب عليه الطابع الشخصي، ويتناول عهد الصبا، وطهارة الحب البريء الخائب: ليل وحلم وحب وحزن وعذاب، ذكريات وأشواق ودموع وانتظار، وفقده لمن يحب:

شيء في قلبي يحترق

إذ يمضي الوقت.. فنفترق

ونمد الأيدي

يجمعها حب

وتفرقها طرق

وأحس بشيء في صدري

شيء كالفرحة

يحترق

تتمثل هذه المرحلة في ديوانه الأول (مقتل القمر).

الاتجاه الثاني:

ويشمل مرحلة الصراع بين الذاتي والعام، ويتمثل في ديوانه الثاني (البكاء بين يدي زرقاء اليمامة)، ويغلب عليه طابع الواقعية، ويطرح فيه موضوعات تصور الأشياء العادية، ويعالج هموم الحياة اليومية:

في جلسة الإفطار، في الهنيهة الطفلّية المبكّرة

أعصب عيني بالصحيفة التي يدسها البائع تحت الباب

وزوجتي تبدأ ثرثرتها اليومية المثابرة

وهي تصبّ شايها الفاتر في الأكواب

تقص عن جارتها التي ارتدت..

وجارها الذي اشترى

وعن شجارها مع الخادم والبواب والقصّاب،

ثم تشد من يديّ صفحة الكرة

الاتجاه الثالث:

يتمثل في ديوانه «تعليق على ما حدث» وديوان «أقوال جديدة عن حرب البسوس» الذي يضم قصيدته الشهيرة (لا تصالح) التي نظمها عام /١٩٧٦/ وفيها دعوة إلى رفض الصلح مع «إسرائيل» وقد لاقت صدىً عظيماً لدى جماهير الشعب العربي:

لا تصالح

ولو توّجوك بتاج الإمارة

كيف تخطو على جثة ابن أبيك...؟

وكيف تصيرُ المليكَ..

على أوجه البهجة المستعارة؟

الاتجاه الرابع:

يتناول ذوبان الذات في الموضوع أو اندماج الخاص والعام، بحيث أن شعره يتخطّى الدائرة الذاتية وهموم الذات، ليخرج إلى دائرة الإنسانية الشاملة.

وتتمثل هذه المرحلة في ديوانه «العهد الآتي»:

كان قلبي الذي نسجته الجروحْ

كان قلبي الذي لعنته الشروح

يرقد ـ الآن ـ فوق بقايا المدينة

وردة من عطن

هادئاً..

بعد أن قال «لا» للسفينة

... وأحبَّ الوطن!

وخلاصة القول أن الشعر أمل دنقل عبّر عن تجربة شعرية متميزة بلغة بسيطة مفهومة، وحادة ومباشرة وقريبة من لغة الناس، مرتبطة بقوة بهم وبمعاناة الأمة ومصيرها.

وهو شاعر ثائر متمرد جريء، لا يخاف التهديد أو الوعيد، لا يساوم السلطة بغية حصد المكاسب الآنية، وهو يرفع صوته الحاد الصادق، ويُشهر سوطه اللغوي النازف في سبيل الدفاع عن الناس البسطاء المقهورين الطيبين، أينما كانوا، داعياً الجماهير إلى عدم الخضوع والخنوع للسلطة الغاشمة، التي ستقودهم في نهاية المطاف إلى الهلاك المحتّم، نتيجة الطيش والمراهقة الفكرية والأنانية المفرطة.

وتجدر الإشارة.. إلى أن اللقاء الأخير مع الشاعر أمل دنقل، أجراه الإعلامي الأديب عبد الوهاب قتاية لصالح برنامج «لآلئ من الخليج»، وقد التقيت بالأديب الناقد عبد الوهاب قتاية في «أبو ظبي» وسألته عن ذكريات اللقاء التلفزيوني الشهير الذي تم بينه وبين الشاعر الراحل فقال:

ـ أمل يرحمه الله، صديق منذ بداية الستينات، ورفقة العمر الطويلة هذه حفرت في القلب ذكريات لا تُنسى تغلب عليها صور الفقر والاغتراب والأحلام متكسرة الأجنحة.

لقد كان صديقاً قريباً من القلب.. يقتسم معي القروش التي قد تكون معي.. وعلى الرغم من عملي في الإذاعة المصرية وتقديمي لبرامج ثقافية فإنه قلّما كان يستجيب لإلحاحي لكي يشارك، ولست أذكر سوى مرات قليلة، أعطاني فيها بعض قصائده لأقرأها في أحد برامجي.. وما زلت احتفظ بأوراقها وعليها خطه الأنيق الرشيق، كخط رسام فنان..

على أن الذكرى التي تزيح دائماً كل الذكريات.. هي ذكرى آخر لقاء معه.. كنت أجلس في غرفته الباردة رقم (٨) بالدور السابع بمستشفى معهد السرطان بالقاهرة... وكان على سريره شبحاً منهكاً.. كشجرة أحرقتها صاعقة.. لكنه كان متوهج الذهن.. ورحنا نسترجع ذكريات الشباب الباكر ونزقه الذي طوته الأيام ونتشاكى الغربة في الوطن وخارجه.. ثم رحت ـ برفق مشفق ـ أفضي إليه

برغبتي في تصويره في حوار أدبي لتلفزيون دولة الإمارات العربية المتحدة.. وكم خفف عن نفسي وطأة التحرج من إرهاقه حين استجاب من فوره.. وحينما حدّثته بأن إدارة المستشفى تتحفظ على التصوير فيه، كان رده: «نصوّر في البيت»!

هل كان ذلك استجابة لما بيننا من ود قديم؟! أم هي الرغبة الخفية وقد أحس بدبيب الفناء.. في أن يترك فينا شيئاً منه: صورة وصوتاً وكلمة.

المهم أننا انتقلنا إلى شقته الصغيرة في (منشيه البكري).. ومن اللحظة الأولى أحسست بأسى العش لطول غياب طائر، ولكنني من وراء قلبي، رحت أجهد في التصرف بشكل طبيعي، وكذلك راحت زوجته ـ السيدة عبلة ـ ورفيقة رحلة العناء... بل راح هو نفسه يضفي لمسة طبيعية على اللقاء ويصر على القيام بدور المضيف.

كان موقفاً مشحوناً بالمشاعر المرهقة.. كلنا كنا نعرف حقيقته، وهي أنه صار ضيفاً آذن بالرحيل.. ولكننا كنا جميعاً نحاول تجاهل ذلك.. بل إنني حين نقلت له مشاعر الناس وتعاطفهم معه في محنته ودعاءهم له.. كان تعليقه:

ـ «الحقيقة أن مشاعر الأصدقاء كانت نصف سبيلي إلى الشفاء.. ومنها استلهم القدرة على مواجهة المحنة، إن شئت أن تسميها محنة.. وهي عابرة إن شاء الله»..

لكنها .. بكل حزن وأسف.. لم تكن عابرة.

* * * * * * * * *

* * * * * * * *

* * * * * * *

* * * * *

* * * *

* *

*

أمـل دنقـل

شهادات أدبية ونقدية..

وآراء ذوقية وجمالية

بأقلام:

- الدكتور عبد العزيز المقالح

- عبد السلام المسّاوي

- الدكتور جابر قميحة



أنشودة البساطة

الدكتور عبد العزيز المقالح

كان أمل دنقل شاعر البساطة في زمن التعقيد والغموض، وأول ما يلفت الانتباه في قصائده البساطة الحادة المصقولة التي تتحول إلى أنشودة مفرطة التواضع. و«أنشودة البساطة» تعبير حديث أطلقه بين شباب الكتاب والشعراء الكاتب الفنان يحيى حقي، والبساطة عند ذلك الشيخ الوقور ـ كما فهمها جيل أمل دنقل ـ لا تعني التمرد على القواعد اللغوية أو الخروج على الأسس الفنية للكتابة، ولا تعني الرقة والتبسيط، إنما تعني تلقائية التناول أو عفوية التعبير، والابتعاد عن خشونة اللفظ والمعاني، وتحويل العمل الأدبي من شعر لا يفهم محتواه سوى نفر قليل من الكتّاب.. إلى أنشودة جماعية وإلى لغة فن ووجدان، ومن السهل جداً أن يتتبع المتلقي فضلاً عن الدارس تجربة أمل دنقل الشعرية، وأن يتبيّن ملامح القراءة في هذه التجربة، التي تختلف عن تجربة الآخرين من زملائه ومن الشعراء الذين سبقوه، وقد ظلت تجربته متميزة منذ البداية الصحيحة إلى أن توقفت مع الوفاة، وكانت بساطته في التناول تجعله يرى أن الفرار من المباشرة لا يعني الفرار من المحيط المباشر للواقع، ولا تعني الفرار من مواجهة العذاب الإنساني والخراب والدمار والتشويه، وهذا الموقف جعله لا يقيم كبير وزن لما يسمى بالألفاظ الشعرية، أو بالمعاني المعقّدة، وهو في نثره القليل الذي تضمنته مقابلاته المنشورة في الصحف والمجلات، لا يكف عن الهجوم السافر الحاد على كثير من شعراء القصيدة «المتجاوزة»، وهو يرى أن معظم التجاوز يقف عند دائرة اللغة وحدها وعند الشكل وحده وهو يعتقد أن ذلك الصنع لا يزيد عن كونه نوعاً من الهروب عن مواجهة الواقع، "ولأن فقدان الثقة عند الشاعر في تغيير هذا الواقع، قد أدى به إلى أنواع من استجلاب وسائل فنية في ظل حضارة مختلفة ومحاولة فرضها على المجتمع الثقافي ـ العربي، ومن هنا تحول

الشعر الحديث إلى شعر مثقفين، في حين أن وظيفته الأساسية هي في ارتباطه بالناس، وقد كان انتصار الشعر الجديد منذ البداية راجعاً إلى ارتباطه بالناس، وتجاوبهم بالتالي معه، وتخلّيهم عن الشكل القديم.. وما يؤدي إليه هذا التجاوز الحديث عن المطلقات.. ومن هنا فإن هذا التجاوز للواقع يحتاج إلى تجاوز للطرائق الفنية التي يتم بها التعبير عن هذا الواقع واستحداث طرائق بديلة واستجلاب لمذاهب فنية، أو لجوء إلى الإيهام بمحاولة تغيير الواقع أو الإيهام بالثورة عن طريق ثورة شكلية فقط.. الشعر لا يلقن أسراره العميقة ولا يضع ناره المقدسة إلا في النفوس الواجدة وفي القلوب البريئة من التطلعات المريضة» أي تكون الثورة على مستوى الشكل فقط [انظر مجلة فصول عن قضايا الشعر المعاصر المجلد الأول العدد الرابع يوليو ١٩٨١.

ومهما يكن نصيب وجهة النظر هذه من الخطأ أو الصواب، فإن وراءها موقف شاعر كبير يدرك أنه خارج من أحزان أمة كبيرة أسيرة إخطبوط هائل من المعاناة والمشاكل ولا بد من أن تحس بالخطر الذي يتهددها، ومهمة الشاعر بالذات أن يوصل هذا الإحساس إلى وعي الأمة وأن لا تتحول قصائده إلى مفردات قاموسية مجردة عن أي معنى أو إلى معان مطلقة تسعى إلى تخدير الوعي وإماتة الحواس بدلاً من إيقاظها، وفي مرحلة الهوان كالمرحلة التي نعيشها الآن لا بد أن يتخلى الشاعر عن الوقوف في دائرة الأحلام الذاتية وقبل أن يحاول التحرر من القوالب الميتة أو التي يراها كذلك عليه أن يتجنب الوقوع في ما هو أخطر من هذه القوالب كالشكلية وتزييف الواقع، تلك هي ببساطة أمل دنقل التي جعلت من شعره صوتاً عميقاً وبسيطاً، ومن المهم قبل ذلك وبعد ذلك أن نعلم أنه هو نفسه قد كان أنشودة من البساطة والتواضع.

تذكرت محنة الشعراء.. وأنا أعيش ذكريات محنة صديقي الشاعر أمل دنقل فقد عانى بالإضافة إلى محنة الفقر والتشرد وإلى محنة القمع والإرهاب محنة التكفير، نعم محنة التكفير، وكانت قصيدته «كلمات سبارتكوس الأخيرة» واحدة من القصائد التي وضعها «زعماء محاكم التفتيش» على مشرحة التكفير،

والقصيدة تدعو إلى التمرد ضد الطغيان وتمجد دور العبد سبارتكوس الذي امتشق السيف في وجه العبودية في وجه روما العابثة بإنسانية الإنسان ومطلع القصيدة وهو الأكثر إثارة يقول:

المجد للشيطان.. معبود الرياح

من قال (لا) في وجه من قالوا (نعم)

من علم الإنسان تمزيق العدم

من قال (لا).. فلم يمت ،

وظل روحاً أبدية الألم !

المجد هنا ، ليس للشيطان (إبليس) ولكنه للشيطان (سبارتكوس) ذلك العبد الشجاع الذي اشتاقت نفسه للحرية فقال (لا) في وجه (القيصر) وكانت النتيجة أن اسمه ظل على كل لسان وظلت روحه الأبدية الألم تزرع الشجاعة في نفوس العبيد وتدفع بهم إلى الصفوف الأولى من المواجهة ، وقد فهم صغار العقول في محاكم التفتيش المعاصرة أن الشاعر يمجد إبليس وأنه بذلك قد كفر ، وان دمه قد صار حلالاً ، وقد حاول صغار العقول هؤلاء أن يصلوا بصرخاتهم الحاقدة إلى (أهل الحل والعقد) إلا أن الصرخات ضاعت في ارض مصر الواسعة الأرجاء ، وظلت تتردد همساً في دهاليز الكراهية إلى أن رحل الشاعر عن عالم الحقد والطغيان وأخذه الله إلى جواره الرحيم الكريم.

لقد كتب الشاعر قصيدته في الاسكندرية وفي شارع الاسكندر الأكبر ، وهو يتنكر الجموع الفقيرة الغفيرة ، وهي تسير في الشوارع محنية الظهور مثقلة الأعناق كقطيع الأغنام ، لا صوت يرتفع بكلمة (لا) الكلمة السائدة والشائعة هي (نعم) مصحوبة بالنسبة المعروفة (٩٩,٩٩).

تذكر الشاعر كل ذلك فكتب قصيدته التي حاول فيها أن يعلّم الجماهير العربية المضطهدة أن تقول (لا) حتى وإن كانت العاقبة لا تختلف كثيراً عن عاقبة ذلك الثائر المعلق في مشنقة على مدخل المدينة الظالمة:

معلق أنا على مشانق الصباح

وجبهتي ـ بالموت ـ محنية

لأنني لم أحنها.. حية

* * * * *

التناص الثقافي في شعر أمل دنقل

عبد السلام المساوي

نقصد بالتناص الثقافي التعالق الذي يحدث بين النص الشعري وبين مجموعة من النصوص التراثية: الشعرية والنثرية. وهذا التناص يرد في نصوص أمل دنقل بشكل مباشر في أغلب الأحيان، وبدرجات متفاوتة فنياً، ذلك أننا نعثر على نصوص تراثية يستدعيها السياق الدلالية، فتلتحم بالنص الشعري إلى حد الذوبان في بنيته، ومنها ما يرد في إطار التضمين والاقتباس مع تحوير بسيط تبرّره ضرورات التركيب والنحو والصرف.

أ ـ التناص الشعري:

ويتراوح بين تضمين مجموعة من الأبيات الشعرية القديمة، وبين أخرى حديثة. وكلاهما يساهم في رفد القصيدة بأبعاد نفسية واجتماعية وجمالية ملحوظة. وبالرجوع إلى أصل الأبيات المضمّنة نكتشف أن الشاعر يركز في انتقائه على الأبيات الأكثر شهرة بين الناس، وهو انتقاء ذكي يمكنه من توصيل رؤيته المعاصرة عبر قنوات تراثية مضمونة الذيوع بين القُراء.

وقد أمكن رصد مجموعة من الأبيات الشعرية الموظّفة في المتن الشعري الدنقلي، رغم محاولات الشاعر في العمل على تلحيمها بنيويا داخل قصائده، هذا التلحيم الذي ورد بأشكال مختلفة، منها ما يأتي في شكل التلحيم المعنوي الذي يحافظ على بنية البيت التراثي، فيُورَدْ كاملاً دون إلحاق تغيير بألفاظه، وهذا ما صنعه دنقل في نموذجين. يقول في الأول:

تكلمي.. تكلمي..

فها أنا على التراب سائل دمي

وهو ظمئ.. يطلب المزيدا

أسائل الصمت الذي يخنقني :

«ما للجمال مشيها وئيداً»؟!

«أجند لا يحملن أم حديدا»؟!

وهو هنا يوظف البيت الذي يروى عن زنوبيا ملكة تدمر:

مـــا للجمـــال مـــشيها وئيـــداً   أجنـــدلاً يحملـــن أم حديـــدا

أم صـــــرفانا بـــــارداً شـــــديداً

ـ أما النموذج الثاني فينتقيه من شعر دعبل الخزاعي الشاعر العباسي:

لا تسألي النيل أن يعطي وان يلدا

لا تسألي.. أبداً

(إني لأفتح عيني حين افتحها

على كثير ولكن لا أرى أحداً)

ومنها ما يتم تلحيمه لفظياً، أي بإجراء تحوير جزئي ينصب على بعض اللفظ حتى يمكن بحلته الجديدة حمل الأبعاد المعاصرة، وكأن الشاعر يستغل شهرة تلك الأبيات وذيوعها بين الناس ليرسل شحنته المعنوية عبرها كي يضمن وصولها، وهذا

ما نجده يفعله بأبيات المتنبي الواردة في مطلع داليته المشهورة التي يهجو فيها كافور الإخشيدي، يقول أمل دنقل:

«عيد بأية حال عدت يا عيد»؟

بما مضى؟ أم لأرضي فيك تهويد

«نامت نواطير مصر» عن عساكرها

وحاربت بدلاً منها الأناشيد!

ناديت: يا نيل هل تجري المياه دما

لكي تفيض، ويصحو الأهل إن نودوا

«عيد بأية حال عدت يا عيد»

- وواضح أن الشاعر يوظف بيتي المتنبي المعروفين:

عيد بأية حال عدت يا عيد   بما مضى أم لأمر فيك تجديد

نامت نواطير مصر عن ثعالبها   فقد بشمن وما تفنى العناقيد

وهو فيها لم يزد على أن غيّر عبارة «أم لأمر فيك تجديد» بعبارة «أم لأرضي فيك تهويد» ولفظة «ثعالبها» بـ «عساكرها» وعجز البيت الثاني «فقد بشمن وما تفنى العناقيد» بـ «وحاربت بدلاً منها الأناشيد»، وقد استطاع البيتان بحلتهما الجديدة، واستناداً على قيمتها التراثية أن يبلغا التأثير المطلوب في المتلقي بنقل الوضعية المزرية التي كانت تعيشها مصر بسبب من هجمة الصهاينة وتخاذل المؤسسة العسكرية.

وقد يلجأ إلى اقتناص عبارة واحدة من قصائد مشهورة لتكون هي البؤرة

الأساسية في عمله الشعري، وغالباً ما تكون العبارة المقتنصة بمثابة اللازمة التي تتكرر في كل القصائد المناصفة، وهذا السلوك الفني نجده في قصيدتين تمثلان طفرة نوعية في تطور تجربة الشاعر ونضجه الفني، وهما قصيدة «الوصايا العشر» وقصيدة «أغنية الكعكة الحجرية» فالأولى يبنيها على أساس العبارة التي كتبها «كليب» ـ قبل أن يلفظ أنفاسه ـ إلى أخيه «المهلهل» ينهاه فيها عن الصلح مع قتلته، وهي عبارة «لا تصالح»، وقد وردت في سياق الأبيات المروية عن «كليب» في قصة الزير سالم الكبرى:

واسمــع مــا أقــول لــك يــا مهلــهل
وصـــايا عـــشر فهـــم بالأكيـــد
فـــأول شـــرط أخـــوي لا تـــصالح
ولـــو أعطـــوك زينـــات النهـــود
وثـــاني شـــرط أخـــوي لا تـــصالح
ولـــو أعطـــوك مـــالاً مـــع عقـــود
وثالـــث شـــرط أخـــوي لا تـــصالح
ولـــو أعطـــوك نوقـــا مـــع عهـــود

وهكذا نجد قصيدة أمل دنقل تقوم بدورها على أساس رفض الصلح، وتكاد تتبنى الموضوعات ذاتها المتضمنة في الأبيات المستشهد بها أعلاه، مع مراعاة الشروط الاجتماعية والفكرية التي تتطلبها المرحلة الراهنة والظروف السياسية التي نظم فيها قصيدة «الوصايا العشر»، وهي مكوّنة من عشر فقرات تبتدئ كل واحدة منها بعبارة «لا تصالح» ومما جاء فيها قوله:

لا تصالح على الدم.. حتى بدم !

لا تصالح ! ولو قيلَ رأسٌ برأس ،

أكُلّ الرؤوس سواء؟ !

اقلب الغريب كقلب أخيكَ؟ !

أعيناه عينا أخيك

وهل تتساوى يد.. سيفُها كان لكْ

بيد سيفُها أثكلك؟

أما الثانية، فيستعير لازمتها التي تتردد بين الفقرات، من قصيدة الشاعر الإسباني الكبير «لوركا» المعنونة بـ «بكائية إغناثيو سانشيث ميخياس»، وهي عبارة عن مرثية الشاعر في صديق عمره، وما يلفت النظر في قصيدة «لوركا» هو تكراره لعبارة «في الساعة الخامسة» وهي إشارة إلى الميقات الذي قتل فيه صديقه المصارع في حلبة مصارعة الثيران، وأمل دنقل يستعير تلك الدقات الرهيبة للساعة الخامسة لتوثيق المظاهرة البطولية التي قام بها طلاب جامعة القاهرة عام /١٩٧٢/، فكان أن واجهتها قوى القمع بالرصاص:

دقت الساعة الخامسة

ظهر الجند دائرة من دروع وخوذات حرب

ها هم الآن يقتربون رويداً.. رويداً..

دقت الساعة الخامسة

دقت الساعة الخامسة

وتفرّق ماؤك ـ يا نهر ـ حين بلغت المصب.

ب ـ التناص النثري:

ونعني بذلك دخول النص الشعري الدنقلي في تعالق مع مجموعة من النصوص النثرية، وأغلبها نصوص دينية من القرآن الكريم والكتاب المقدس، وبعض الأقوال المأثورة عن شخصيات تاريخية معروفة، ولعل أرقى درجات التناص النثري، تلك التي يكتفي فيها الشاعر بتوظيف بعض المعطيات البلاغية والموسيقية المرتبطة بالنثر القديم توظيفاً جديداً يساهم في إثراء الجانب الموسيقي في القصيدة، وهذا ما نجده في قصيدة «صلاة» إذ يستغل فيها عنصراً بديعياً هو «الجناس»:

تفردت وحدك باليسر. إن اليمين لفي خسر

أما اليسار ففي عسر. إلا الذين يماشون

إلاّ الذين يعيشون يحشون بالصحف المشتراة

العيون. فيعشون. إلاّ الذين يشون

وإلاّ الذين يوشون ياقات قمصانهم برباط السكوت

بالإضافة إلى ذلك فإن في هذه الفقرة، من حيث بنية أسلوبها ونسق تركيبها، تحايل على آيات قرآنية كريمة اجتهد الشاعر في تمثلها وهي: «والعصر. إن الإنسان لفي خسر. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر»، ومثل هذا الاستخدام الفني للنص القرآني، يتبناه الشاعر في قوله:

ليغفر الرصاص من ذنبك ما تأخر

ليغفر الرصاص.. يا كسنجر

وهو في ذلك يوظف قوله تعالى: «**إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً**»، ويخضع توظيفه لتغيير بعض المفردات الأصلية بمفردات معاصرة (الرصاص ـ كسنجر)، ويلاحظ أن استبدال المفردات يحول الدعاء إلى خطاب موغل في التهكم والسخرية من ممارسات كسنجر العدوانية في الحرب العربية الإسرائيلية التي اندلعت عام /١٩٧٣/..

ومن أوجه هذا التناص أيضاً التجاؤه إلى توظيف تقنية دينية عرفت في الكتاب المقدس باسم «المزامير»... [انظر قصيدة سفر التكوين» المنشورة في هذا الكتاب.

ومن النصوص النثرية التي تدخل في علاقة تناص مع المتن الدنقلي، قولة معاوية ابن أبي سفيان الشهيرة التي جاء فيها: «لو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، لأنهم إذا شدوا أرخيت، وإن أرخوا شددت»، وهي تعكس لنا جانباً من دهاء معاوية السياسي القائم على التضليل والخداع.. وقد وفق الشاعر فنيا في توظيف القولة، لأنه اختزلها في عبارة واحدة، «شعرة الوالي ابن هند»، ودلاليا بالتنصيص على استيقاظ وعي الناس على سياسة الخداع تلك، وقطع تلك الشعرة:

أيها السادة: لم يبق انتظار

قد منعنا جزية الصمت لمملوك وعبد

وقطعنا شعرة الوالي «ابن هند»

التراث الشعبي في شعر أمل دنقل

الدكتور جابر قميحة

أعني بالتراث الشعبي مضمونة أو مفهومة الخاص في نطاق الحياة المصرية من أغانٍ وأمثال وحكايات وشخصيات وقوالب، والحقيقة أن هذا اللون قليل بل نادر جداً في شعر أمل دنقل، وهذا القليل النادر لا يكاد يظهر أو يطل بوجود له اعتبار مع المصادر التراثية الأخرى التي استرفدها أمل، ومن ذلك الإشارة إلى شخصية «ادهم الشرقاوي» الذي يشغل كثيراً من الأغاني والمواويل الشعبية، والمعروف عند عامة الناس بوقوفه في وجه السلطة، فيقول في قصيدته «أشياء تحدث في الليل» التي أهداها إلى «صلاح حسين» الذي قتل في إحدى القرى المصرية:

وكانت الأصوات في القرى جنائزية الإيقاع

ورحلة الموال في الضلوع تفرد القلوع

«أدهم مقتول على كل المروج

أدهم مقتول على الأرض المشاع».

وثمة كلمات طفولية مرتبطة بعادة مصرية قديمة [وربما عربية] خلاصتها: أن الطفل الصغير إذا خلع له ضرس أو سنة كان يمسك بها، ويقذف بها في وجه الشمس وهو ينشد:

يا شمس يا شمّوسة

خُدي سنّة الجاموسه

وهاتي سنّة العروسه !

وهي كلمات ضارعة بان تعوضه الشمس عن سنته المخروبة بسنة جديدة بيضاء جميلة مثل سنة العروسة، وربما كان قصد الشمس لرابطة البياض بينها وبين السنة المنشودة، وقد يكون ذلك من «المواريث» المصرية القديمة أيام عبادة الإله «رع» الذي يرمز إليه بالشمس.

ويأخذ أمل دنقل المضمون العام لهذه العادة المصرية القديمة، ويقترب ـ إلى حد ما ـ بكلمات عربية رصينة من القوالب الشعبية القديمة، ولكنه يحور في المضمون، بل يعكسه بما يتسع لإلماع حاد في نقد «الأوضاع الاجتماعية»:

صديقي الذي غاص في البحر... مات

فحنطته..

واحتفظت بأسنانه..

كل يوم إذا طلع الصبح : آخذ واحدة..

أقذف الشمس ذات المحيا الجميل

وأردد يا شمس، أعطيك سنته اللؤلؤية

ليس بها من غبار.. سوى نكهة الجوع!!

رُدِّيه، رديه.. يرْو لنا الحكمة الصائبة

ولكنها ابتسمت بسمة شاحبةْ

وربما كانت التفاته أمل إلى ما هو عربي وإسلامي من التراث بكل ما فيه من مضامين تاريخية وإنسانية قد استغرقت رؤيته، ورأى في هذا الاستغراق ما يرضي نزعته التراثية، وهو الذي عزف عن «التراث الفرعوني»، ولم يجد فيه العطاء المنشود.

وربما كان هذا العزوف عن الشرائح الشعبية في تراثنا، متسقاً مع اعتزاز أمل بالعربية الفصحى وإخلاصه لها، والمعروف أن التراث الشعبي يعتمد بصفة أساسية على اللغة العامية.

القرآن الكريم، الكتاب المقدس: التوراة والإنجيل، التاريخ العربي والإسلامي، التاريخ الأوروبي، التراث الشعبي المصري: كانت هذه هي أهم المصادر التي استمنحها أمل دنقل عطاءه الفكري والجمالي (والذوقي) في كثير من قصائده على اختلاف وتفاوت في قدر الأخذ والاستلهام.

أمــل دنقــل

مختارات شعرية

براءة

أحسُّ حيال عينيك

بشيء داخلي يبكي

أحس خطيئة الماضي تعرت بين كفيك

وعنقوداً من التفاح في عينين خضراويين

أأنسى رحلة الآثام في عينين فردوسين

وحتى أين؟

تعذبني خطيئاتي.. بعيداً عن مواعيدك

وتحرقني اشتهاءاتي قريباً من عناقيدك!

وفي صدري

صبي أحمر الأظفار والماضي

يخطط في تراب الروح ،

وفي أنقاض أنقاضي

وأنظر نحو عينيك

فترعشني طهارة حب

وتغرقني اختلاجة هدب

وألمح ـ من خلال الموج ـ وجه الرب

يؤنبني

على نيران أنفاسي يقلبني

وأطرق..

والصراع المر في جوفي يعذبني ! !

أحدق في خطوط الصيف في شفتيك :

يعوي داخلي الحرمان

(لهيب آدمي الشوق ، مصباحان يرتعشان)

وأهرب نحو عينيك :

يطالعني الندى والله والغفران !

واسقط بين نهديك

لتحترق الرؤى

واغرق فيهما بالنار والشك

فتشوى رغبتي شيا

وأغمض عنك عينيا

واسند رأسي الملفوح في صدرك

فقد تترمد الأفكار في جمرك

واحرق جنة المأوى

....

فيا ذات العيون الخضرْ

دعي عينيك مغمضتين فوق السرّ

.. لأصبح حرْ!!

العينان الخضراوان

العينان الخضراوان

مروحتان

في أروقة الصيف الحران

أغنيتان مسافرتان

أبحرتا مسافرتان

أبحرتا من نايات الرعيان

بعبير حنان

بعزاء من آلهة النور إلى مدن الأحزان

سنتان

وأنا ابني زورق حب

يمتد عليه من الشوق شراعان

كي أبحر في العينين الصافيتين

إلى جزر المرجان

ما أحلى أن يضطرب الموج فينسدل الجفنان

وأنا أبحث عن مجداف

عن إيمان!

في صمت «الكاتدرائيات» الوسنان

صور «للعذراء» المسبلة الأجفان

يا من أرضعت الحب صلاة الغفران

وتمطى في عينيك المسبلتين

شباب الحرمان

رُدّي جفنيك

لأبصر في عينيك الألوان

أهما خضراوان

كعيون حبيبي؟

كعيون يبحر فيها البحر بلا شطآن

يسأل عن حب

عن ذكرى

عن نسيان !

قلبي حران ، حران

والعينان الخضراوان

مروحتان !

المطر

وينزل المطر

ويغسل الشجر

ويثقل الغصون الخضراء بالثمر

....

ينكشف النسيان

عن قصص الحنان

عن ذكريات حب

ضيّعه الزمان

لم تبق منه إلا النقوش في الأغصان

قلب ينام فيه سهم

وكلمتان

تغيب في عناق

جنبي... فراشتان

وأنت يا حبيبي

طير على سفر

ويرحل المطر

ويذبل الشجر

ويغمر الغبار النقوش والصور

....

وتهبط الأحزان

فتمحى الألوان

والقلب

والخطوط العرجاء

والأسمان

وينخر السوس القديم في العيدان

وترحل الطيور الزرق

بلا عنوان

تسأل عن هوانا

تسأل عما كان

ما كان يا حبيبي

حلم، وقد عبر!

وينزل المطر

ويرحل المطر

وينزل المطر

ويرحل المطر

والقلب يا حبيبي

ما زال ينتظر

مقتل القمر!

... وتناقلوا النبأ الأليم على بريد الشمس

في كل المدينة :

«قتل القمر» !

شهدوه مصلوباً تدلى رأسه فوق الشجر !

نهب اللصوص قلادة الماس الثمينة

من صدره !

تركوه في الأعواد ،

كالأسطورة السوداء في عيني ضرير

ويقول جاري :

ـ «كان قديساً ، لماذا يقتلونه» ؟

وتقول جارتنا الصبية :

ـ «كان يعجبه غنائي في المساء

وكان يهديني قوارير العطور

فبأي ذنب يقتلونه ؟

هل شاهدوه عند نافذتي ـ قبيل الفجر ـ يصغي للغناء» ؟ !

....

وتدلت الدمعات من كل العيون

كأنها الأيتام ـ أطفال القمر

وترحموا..

وتفرقوا

فكما يموت الناس.. مات

وجلست ،

اسأله عن الأيدي التي غدرت به

لكنه لم يستمع لي ،

.. كان مات !

دثرته بعباءته

وسحبت جفنيه على عينيه..

حتى لا يرى من فارقوه!

وخرجت من باب المدينة

للريف:

يا أبناء الريف أبوكم مات

قد قتله أبناء المدينة

ذرفوا عليه دموع أخوة يوسف

وتفرَّقوا

تركوه فوق شوارع الإسفلت والدم والضغينة

يا أخوتي: هذا أبوكم مات!

ـ ماذا؟ لا .. أبونا لا يموت

بالأمس طول الليل كان هنا

يقص لنا حكايته الحزينة !

ـ يا أخوتي بيدي هاتين احتضنته

أسبلت جفنيه على عينيه حتى تدفنوه !

قالوا : كفاك ، اصمت

فإنك لست تدري ما تقول

قلت : الحقيقة ما أقول

قالوا : انتظر

لم تبق إلا بضع ساعات..

ويأتي !

حط المساء

وأطل من فوقي القمر

متألق البسمات ، ماسي النظر

ـ يا أخوتي هذا أبوكم ما يزال هنا

فمن هو ذلك الملقى على أرض المدينة؟

قالوا : غريب

ظنه الناس القمر

قتلوه ، ثم بكوا عليه

ورددوا «قتل القمر»

لكن أبونا لا يموت

أبداً أبونا لا يموت !

شيء يحترق

شيء في قلبي يحترق

إذ يمضي الوقت.. فنفترق

ونمد الأيدي

يجمعها حب

وتفرقها.. طرق

.. ولأنت جواري ضاجعة

وأنا بجوارك ، مرتفق

وحديثك يغزله مرح

والوجه.. حديث متسق

ترخين جفونا

أغرقها سحر

فطفا فيها الغرق

وشبابك حانٌّ جبليٌّ

أرز، وغدير ينبثق

ونبيذ ذهبي وحدي

مصطبح منه ومغتبق

وتغوص بقلبي نشوته

تدفعني فيك.. فتلتصق

وأمد يدين معربدتين

فثوبك في كفي..

مزق

وذراعك يلتف

ونهر من أقصى الغابة يندفق

وأضمك

شفة في شفة

فيغيب الكون ، وينطبق

....

وتموت النار

فنرقبها

بجفون حار بها الأرق

خجلى!

وشفاهك ذائبة

وثمارك نشوى تندلق

ونعود نثرثر

كبيحرات هادئة

غطاها الورق

ويمر الوقت فلا ندري

ويقيم محافله الشفق

وتدق الساعة معلنة

فيهب بنا صحو قلق

ويحين وداع

وقتي

وأراه كحلم ينسحق

يرتد الصمت لموضعه

ويعود إلى الأذن الحلق

ونمد الأيدي

راغمة

نتشابكى العتب

وتنزلق!

وأحس بشيء في صدري

شيء.. كالفرحة

يحترق!

كلمات سبارتكوس الأخيرة

(مزج أول):

المجد للشيطان... معبود الرياح

من قال «لا» في وجه من قالوا «نعم»

من علم الإنسان تمزيق العدم

من قال «لا».. فلم يمت،

وظل روحاً أبدية الألم!

(مزج ثان):

معلق أنا على مشانق الصباح

وجبهتي ـ بالموت ـ محنية

لأنني لم احنها.. حية!

....

يا إخوتي الذين يعبرون في الميدان مطرقين

منحدرين في نهاية المساء

في شارع الاسكندر الأكبر:

لا تخجلوا.. ولترفعوا عيونكم إليَّ

لأنكم معلقون جانبي.. على مشانق القيصر.

فلترفعوا عيونكم إلي

لربما.. إذا التقت عيونكم بالموت في عيني:

يبتسم الفناء داخلي.. لأنكم رفعتم رأسكم.. مرة!

«سيزيف» لم تعد على أكتافه الصخرة

يحملها الذين يولدون في مخادع الرقيق.

والبحر.. كالصحراء.. لا يروي العطش

لأن من يقول «لا» لا يرتوي إلا من الدموع!

.. فلترفعوا عيونكم للثائر المشنوق

فسوف تنتهون مثله.. غداً

وقبلوا زوجاتكم.. هنا.. على قارعة الطريق

فسوف تنتهون هاهنا.. غداً.

فالانحناء مر..

والعنكبوت فوق أعناق الرجال ينسج الردى

فقبلوا زوجاتكم.. إني تركت زوجتي بلا وداع

وإن رأيتم طفلي الذي تركته على ذراعها بلا ذراع

فعلموه الانحناء !

علموه الانحناء !

الله.. لم يغفر خطيئة الشيطان حين قال لا !

والودعاء الطيبون..

هم الذين يرثون الأرض في نهاية المدى

لأنهم.. لا يشنقون !

فعلموه الانحناء

وليس ثم من مفر

لا تحلموا بعالم سعيد

فخلف كل قيصر يموت : قيصر جديد !

وخلف كل ثائر يموت : أحزان بلا جدوى...

ودمعة سدى !

(مزج ثالث) :

يا قيصر العظيم : قد أخطأت.. إني اعترف

دعني ـ على مشنقتي ـ الثم يدك

ها أنذا اقبل الحبل الذي في عنقي يلتف

فهو يداك ، وهم مجدك الذي يجبرنا أن نعبدك

دعني أكفّر عن خطيئتي

أمنحك ـ بعد ميتتي ؟ ! ـ جمجمتي

تصوغ منها لك ، كأساً لشرابك القوي

... فإن فعلت ما أريد :

إن يسألوك مرة عن دمي الشهيد

وهل ترى منحتني «الوجود» كي تسلبني «الوجود»

فقل لهم : قد مات .. غيرَ حاقد علي

وهذه الكأس ـ التي كانت عظامها جمجمته

وثيقة الغفران لي.

يا قاتلي : إني صفحت عنك..

في اللحظة التي استرحت بعدها مني :

استرحت منك !

لكنني.. أوصيك إن تشأ شنق الجميع

أن ترحم الشجر !

لا تقطع الجذوع كي تنصبها مشانقا

لا تقطع الجذوع

فربما يأتي الربيع

«والعام عام جوع»

فلن تشم في الفروع.. نكهة الثمر !

وربما يمر في بلادنا الصيف الخطر

فتقطع الصحراء.. باحثاً عن الظلال

فلا ترى سوى الهجير والرمال والهجير والرمال

والظمأ الناري في الضلوع !

يا سيد الشواهد البيضاء في الدجى..

يا قيصر الصقيع

(مزج رابع):

يا أخوتي الذين يعبرون في الميدان انحناء

منحدرين في نهاية المساء

لا تحلموا بعالم سعيد..

فخلف كل قيصر يموت: قيصر جديد

وإن رأيتم في الطريق «هانيبال»

فأخبروه أنني انتظرته مدىً على أبواب «روما» المجهدة

وانتظرت شيوخ روما ـ تحت قوس النصر ـ قاهر الأبطال

ونسوة الرومان بين الزينة المعربدة

ظللن ينتظرن مقدم الجنود..

ذوي الرؤوس الأطلسية المجعدة

فأخبروه أنني انتظرته... انتظرته..

لكنه لم يأت !

وأنني انتظرته.. حتى انتهيت في حبال الموت

وفي المدى : «قرطاجةُ» بالنار تحترق

«قرطاجةُ» كانت ضمير الشمس : فقد تعلمت معنى الركوع

والعنكبوت فوق أعناق الرجال

يا إخوتي : «قرطاجةُ» العذراء تحترق

فقبلوا زوجاتكم ،

إني تركت زوجتي بلا وداع

وإن رأيتم طفلي الذي تركتُه على ذراعها.. بلا ذراع

فعلموه الانحناء..

علموه الانحناء...

علموه الانحناء..

(نيسان ١٩٦٢)

البكاء بين يدي زرقاء اليمامة

أيتها العرّافة المقدَّسةْ

جئت إليك.. مثخناً بالطعنات والدماء

أزحف في معاطف القتلى ، وفوق الجثث المكدسة

منكسر السيف ، مغبَّر الجبين والأعضاء

اسأل يا زرقاءْ..

عن فمك الياقوت عن نبوءة العذراء

عن ساعدي المقطوع.. وهو ما يزال ممسكاً بالراية المنكّسة

عن صور الأطفال في الخوذات.. ملقاة على الصحراء

عن جاري الذي يَهُمُّ بارتشاف الماء..

فيثقب الرصاصُ رأسَه.. في لحظة الملامسة !

عن الفم المحشو بالرمال والدماء ! !

أسأل يا زرقاء..

عن وقفتي العزلاء بين السيف.. والجدارْ !

عن صرخة المرأة بين السَّبي والفرار؟

كيف حملت العار..

ثم مشيتُ؟ دون أن أقتل نفسي ؟ ! دون أن أنهار ؟ !

ودون أن يسقط لحمي.. من غبار التربة المدنّسة ؟ !

تكلّمي أيتها النبيّة المقدّسة

تكلمي .. بالله.. باللعنة.. بالشيطان

لا تغمضي عينيك ، فالجرذان..

تلعقَ من دمي حساءَها.. ولا أردُّها !

تكلّمي.. لشدَّ ما أنا مُهان

لا الليل يُخفي عورتي.. ولا الجدران !

ولا اختبائي في الصحيفة التي أشدُّها..

ولا احتمائي في سحائب الدخان!

... تقفز حولي طفلةٌ واسعةُ العينين.. عذبةُ المشاكسة

(ـ كان يَقُصُّ عنك يا صغيرتي.. ونحن في الخنادقْ

فنفتح الأزرار في ستراتنا.. ونسند البنادقْ

وحين مات عَطَشاً في الصحراء المشمسة..

رطّب باسمك الشفاه اليابسة..

وارتخت العينان)!

فأين أُخفي وجهي المتهم المدان؟

والضّحكة الطروب ضحكته..

والوجهُ.. والغمازتان!؟

....

أيتها النبية المقدسة..

لا تسكتي.. فقد سَكَتُّ سنةً فسنةً..

لكي أنال فضلة الأمانْ

قيل ليَ «اخرس»..

فخرستُ... وعميت وائتممتُ بالخصيان!

ظللتُ في عبيد (عبسٍ) أحرس القطعان

أجتزُّ صوفَها..

أردُّ نوقها..

أنام في حظائر النسيان

طعاميَ الكسرةُ.. والماءُ.. وبعض التمرات اليابسة.

وها أنا في ساعة الطعان

ساعةَ أن تخاذل الكماةُ.. والرماةُ.. والفرسانْ

دُعيت للميدان!

أنا الذي ما ذقتُ لحمَ الضان..

أنا الذي لا حول لي أو شأن..

أنا الذي أُقصيت عن مجالس الفتيان،

أُدعى إلى الموت.. ولم أُدعَ إلى المجالسة!!

تكلّمي أيتها النبيّة المقدّسة

تكلمي.. تكلمي..

فها أنا على التراب سائل دمي

وهو ظمئ.. يطلب المزيدا.

أسائل الصمت الذي يخنقني :

«ما للجمال مشيُها وئيدا»..؟!

«أجندلاً يحملن أم حديدا»؟!

فمن تُرى يصدُقْني؟

أسائل الركّع والسُّجودا

أسائل القُيودا

«ما للجمال مشيُها وئيدا»؟!

«ما للجمال مشيُها وئيدا»؟!

....

أيتها العرَّافة المقدسة..

ماذا تفيد الكلمات البائسة؟

قلت لهم ما قلتِ عن قوافل الغبارْ..

فاتهموا عينيك، يا زرقاء، بالبوارْ!

قلتِ لهم ما قلتِ عن مسيرة الأشجار..

فاستضحكوا من وهمكِ الثرثار

وحين فُوجِئوا بحدِّ السيف: قايضوا بنا..

والتمسوا النجاةَ والفرار!

ونحن جرحى القلبِ،

جرحى الروح والفم.

لم يبق إلاّ الموتُ..

والحطامُ..

والدمار..

وصِبيةٌ مشرّدون يعبرون آخر الأنهارْ

ونسوة يُسقْنَ في سلاسل الأسرِ،

وفي ثياب العارْ

مُطأطئات الرأس.. لا يملكن إلاّ الصرخات التاعسة!

ها أنت يا زرقاءْ

وحيدة.. عمياء!

وما تزال أغنياتُ الحب.. والأضواءْ

والعربات الفارهاتُ.. والأزياءْ!

فأين أُخفي وجهيَ المشَوَّها

كي لا أعكّر الصفاء.. الأبله.. المموَّها.

في أعين الرجال والنساء!؟

وأنت يا زُرقاء..

وحيدة.. عمياء!

وحيدة.. عمياء!

(١٩٦٧/٦/١٣)



موت مغنية مغمورة

صوت (١) :

أغلقي المذياع ،

هذا زمن السكتةِ ،

«سالومي» تغنِّي..

من تُرى يحمل رأس «المعمدانْ» ؟ !

....

في انكسارات الظلال..

تبدأ الأحزانُ في أعماقنا إيقاعَها الهادئَ ،

تصحو الرغبةُ المرتعشةْ.

تتوالى قطرات الصمت من صنبورها الفضي ،

كي ترسم في صفحة ماضينا.. الدوائر

صورة لامرأة تجلس في البهو ـ تحوكُ الصوفَ ـ

في مئزرها البيتي ، لفّاء الضفائرْ

نقراتُ المطر العذبةُ في النافذة البيضاء ،

دفقُ الدفء من تمتمةِ القطةِ

موسيقى السكون الموحشةْ

مركباتُ الغد تدنو في الخيال..

تصهل الأفراسُ عند الباب :

ـ «أين القادمون»؟

ـ الليل.. الوحدة.. والشوق المحال

(تقاسيم):

عقب استعراضها الفاشل.. لم تخلع رداء الرقص ،

ظلت خلف أستار «الكواليس» ،

تَرُدُّ السحبَ الزرقاءَ عن أعينها ، تبكي شباباً..

كانت المتعةُ فيه: قطعةَ الجبن.. وكأسين من «الروم»،

لكي تمرح في غرفة ريفي من الطلاّب..

لا تملكُ يمناهُ سوى الكسرة والتبغ الرخيص،

ـ الآن يمشي خلفه.. سربٌ من الأطفال،

عند النوم يسطُون على منظاره الطبي.. حتى لا يرى!

وجهها صافٍ.. وعيناها غديران من الحزن،

ويدنو الخادمُ الأسمرُ، يلقي باقةَ الوردِ

ويلقي دعوة للسهر..

«الآن سنمضي،

وغداً سوف يوافيها الطبيبُ ـ الموتُ والإجهاضُ ـ

هذا شهرها الثالثُ. رغم الحذر الشائع!

حتى أنتِ يا أقراص منع الحمل؟!

ما من أحدٍ في هذه الدنيا جديرٌ بالأمان»

منفرد

مَنْ يفترسُ الحَمَل الجائع

غيرُ الذئب الشبعانْ

ارتاح الربُّ في اليوم السابع

لكن.. لم يسترح الإنسان

صوت (٢):

وحدها.. تَسَّاقَطُ الدمعةُ من عين الليال

بعد أن علَّقها الوهم طويلاً..

وحدها، سرعان ما ترشفها الأرض،

وينساها الرجال

شربوا قهوتَها المرة والمذياعُ ما زال يغني!

والمصابيحُ تُضاء!

الحزن لا يعرف القراءة

تأكلني دوائرُ الغُبار

أدور في طاحونةِ الصمتِ، أذوب في مكانيَ المختار

شيئاً.. فشيئاً.. يختفي وجهي وراءَ الأقنعة

أعمدةُ البَرقِ التي تطل من نوافذ القطار

كأنها سربُ إوز أسود الأعناق

يطلق في سكينتي صرخته المروّعة

ويختفي.. متابعاً رحلته مع التيار!

(صوتك كان؟

أم نعاس الشهوة الماكر بين انفراج الشفتين؟

هذا الذي يشبك قلبي خاتماً.. تحت نعومة القفّاز

حتى إذا اغتسلت في نهاية السهرة من لزوجة الألفاظ..

تخبئينه على نافذة الحمّام.. يستعيد ذكرياته..

ويسترد الزمنَ الضائع بين الصورتين)؟!

....

توقفي أيتهاً الأشرطة البيضاء

فقد نرى الخيط الذي خلَّفه الثعبان فوق الصحراء

وقد نرى عظام من ماتوا من الظمأ

وقد نرى.. وقد نرى..

لكنما الأشياء..

يدب فيها نبضها الوحشيُّ، نبضها المكبوتْ

تذرو على وجهي دقيقَ دفئها..

ومزقا من ورقات التوت.

تشرع في العيون صولجانها المكسوَ بالصدأ

وفي المقاهي ترفع الصوت، وتحكي عن فضائح البيوت!

ـ في آخر العمرِ، تصير الأذن عادةً..

سلَّة مهملات...!

....

(جوارب السيدة المرتخية

ظلت تثير السخرية

وهي تسير في الطريق.

وحين شدتها: تمزقت..

فانفجر الضحك، ووارت وجهها مستخذية.

وهكذا أسقطها الصائد في شباك سيارته المفتوحة

فارتبكت وهي تسوِّي شعرَها الطليق

وأشرقت بالبسمات الباكية)!

....

لقد فقدتُ مقعدي.. قبيل أن يرتفع الستار

وانكسرت في داخلي الرغبة في استرداده، الرغبةُ في الشجار

فكل شيء يرتخي في لحظة التأهب المرتقبة

وتعبث الأيدي بأزرار قميصها المذّهبة

وتنطفي فقّاعةُ السخط.. ببسمة اعتذار!

شيئاً فشيئاً.. غاب عن قلبيَ خيطُ الضوء!

واللحظة الملتهبة!

والنشوةُ الأولى التي تشدُّ الظهر..

حين يدق سمعنا إيقاعُ خطو امرأةٍ مقتربة!

وضحكة العذراء عندما يرشها رذاذُ البحر!

والألم الذي يهصرنا لطفلة عرجاء!

والدفء في استغراق كهل جالس، يحل في هدوء..

مسابقة الكلمات..!!

رؤوسنا تسقط.. لا يسندها..

إلاّ حوافّ الياقة المنتصبة!

فارحم عذابي أيها الألم..

واسند حطامي المنهار..

حديث خاص مع

أبي موسى الأشعري

ـ ١ـ

إطار سيارته ملوث بالدمّ !

سار.. ولم يهتمّ ! !

كنت أنا المشاهد الوحيدْ

لكنني.. فرشتُ فوق الجسد الملقى جريدتي اليومية

وحين أقبلَ الرجالُ من بعيد..

مزقت هذا الرقم المكتوب في وريقةٍ مطويّةْ

وسرتُ عنهم.. ما فتحتُ الفم ! !

....

(حاربتُ في حربهما

وعندما رأيتُ كلاً منهما.. مُتَّهماً

خلعتُ كلاً منهما!

كي يسترد المؤمنون الرأي والبيعة

.. لكنهم لم يدركوا الخدعة)!

....

حين دلفتُ داخل المقهى

جرَّدني النادلُ من ثيابي

جردتُه بنظرة ارتيابِ

بادلتُه الكُرْها

لكنني منحتُه القرشَ: فزيَّن الوجها..

ببسمةٍ.. كلبيةٍ.. بَلْها..

ثم رسمتُ وجهه الجديدَ.. فوق علبة الثقابِ!

ـ ٢ ـ

رأيتُهم ينحدرون في طريق النهرْ..

لكي يشاهدوا عروسَ النيل ـ عند الموت ـ في جَلْوتها

الأخيرة

وانخرطوا في الصلوات والبكاء.

وجئتُ.. بعد أن تلاشت الفقاقيعُ، وعادت الزوارقُ

الصغيرة

رأيتُهم في حلقات البيع والشراء

يقايضون الحزنَ بالشواءْ

.. تقول لي الأسماك

تقول لي عيونها الميتة القريرة:

إن طعامها الأخير.. كان لحماً بشرياً...

قبل أن تجرفها الشِّباك!

يقول لي الماء الحبيس في زجاج الدورق اللمَّاعْ

إن كلينا.. يتبادلان الابتلاعْ!

تقول لي تحنيطة التمساح فوق باب المنزل المقابلْ

إن عظامَ طفلةٍ.. كانت فراش نومه في القاع!!

....

(خلعت خاتمي.. وسيدي.

فهل تُرى أحصي لكِ الشامات في يدي

لتعرفيني حين تُقبلين في غدِ

من رَغَوات الزَّبَدِ)؟!

....

في ليلة الوفاء..

رأيتُها ـ فيما يرى النائمُ ـ مُهرةً كسلى

يسرجُها الحوذيُّ في مركبة الكراءْ

يهوي عليها بالسياط ، وهي لا تشكو.. ولا تسير!

وعندما ثرتُ.. وأغلظتُ له القولا..

دارت برأسها..

دارت بعينيها الجميلتينْ..

رأيت في العينين : زهرتينْ

تنتظران قبلة. من نحلة هيض جناحُها.. فلم تَعُد تطيرْ!

.. رأيتُها ـ فيما يرى النائم ـ طفلة.. حُبلى!

رأيتُها.. ظلا!

وفي الصباح : حينما شاهدتُها مشدودة إلى الشراعْ

ابتسمتْ ، ولوَّحَتْ لي بالذراعْ

لكنني : عَثُرتُ في سيري!

رأيتُني.. غيري !

وعندما نهضتُ : ألقيتُ عليها نظرة الوداعْ

كأنني لم أرها قبلا !

فأطْرَقَتْ خجلى..

ولم تقل إني رأيتُها.. ليلا !

ـ ٣ ـ

خرجتُ في الصباح.. لم أحمل سوى سجائري

دسستُها في جيب سترتي الرمادية

فهي الوحيدةُ التي تمنحني الحبَّ.. بلا مقابل !

....

رؤيا :

(ويكونُ عامٌ.. فيه تحترقُ السنابلُ والضروع

تنمو حوافرنا ـ مع اللعنات ـ من ظمأ وجوع

يتزاحفُ الأطفالُ في لعق الثرى !

ينمو صديدُ الصمغ في الأفواه ،

في هدب العيون.. فلا ترى !

تتساقط الأقراطُ من آذان عذراوات مصرْ !

ويموت ثديُ الأمِّ.. تنهض في الكرى

تطهو ـ على نيرانها ـ الطفل الرضيع) ! !

....

حاذيت خطو الله ، لا أمامهُ.. ولا خَلْفَهْ

عرفتُ أن كلمتي أتفه..

من أن تنال سيفه أو ذهبهْ.

(حين رأتْ عينايَ ما تحت الثياب : لم يَعُدْ يثيرني) !

قلَّبتُ ـ حيناً ـ وَجْهَيْ العُمْلةْ

حتى إذا ما انقضتْ المهلة

ألقيتها في البئر.. دون جَلَبَة !

وهكذا.. فقدتْ حتى حِلْمَه وغَضَبَهْ.

(عيناك : لحظتا شُروقْ

ارشف قهوتي الصباحية من بُنِّها المحروق

واقرأ الطالعْ !

وفي سكون المغرب الوادعْ

عيناك ، يا حبيبتي ، شُجيرتا برقوق

تجلس في ظلّها الشمسُ ، وترفو ثوبها المفتوق

عن فخذها الناصع) !

ـ ٤ ـ

وستهبطين على الجموع

وترفرفين.. فلا تراك عيونُهم.. خلف الدموعْ

تتوقفين على السيوف الواقفة

تتسمَّعين الهمهمات الواجفهْ

وسترحلين بلا رجوع !

....

ويكون جوع !

ويكون جوع !

(آذار ١٩٦٧)

من مذكرات المتنبي

(في مصر)

أكرهُ لون الخمر في القنِّينة

لكنني أدمنتها.. استشفاءاً.

لأنني منذ أتيتُ هذه المدنية

وصرتُ في القصور ببغاءاً :

عرفتُ فيها الداءا !

.. أمثل ساعة الضحى بين يدي كافور

ليطمئن قلبه ، فما يزال طيره المأسور

لا يترك السجن ولا يطير!

أبصر تلك الشفة المثقوبة

ووجهه المسودَّ، والرجولة المسلوبة

.. أبكي على العروبة!

.. يومئ، يستنشدني: أنشده عن سيفه الشجاع

وسيفه في غمده.. يأكله الصدأ!

وعندما يسقط جفناه الثقيلان، وينكفئ.

أسير مُثقل الخُطى في ردهات القصر

أبصر أهل مصر..

ينتظرونه.. ليرفعوا إليه المظلمات والرقاع!

.. جاريتي من حلب، تسألني «متى نعود»؟

قلت: الجنود يملأون نقط الحدود

ما بيننا وبين سيف الدولة.

قالت: سئمتُ من مصر، ومن رخاوة الركود

فقلت : قد سئمتُ ـ مثلك ـ القيام والقعود

بين يدي أميرها الأبله.

لعنت كافورا

ونمتُ مقهورا..

.. «خولةُ» تلك البدوية الشموس

لقيتها بالقرب من «أريحا»

سويعةً ، ثم افترقنا دون أن نبوحا

لكنها كل مساءٍ في خواطري تجوس

يفترُّ بالشوق وبالعتاب ثغرُها العبوس

أشم وجهها الصبوحا

أضم صدرها الجموحا !

....

سألت عنها القادمين في القوافل

فأخبروني أنها ظلت بسيفها تقاتل..

في الليل تجارَ الرقيق عن خبائها

حين أغاروا ، ثم غادروا شقيقها ذبيحا

والأبَ عاجزاً كسيحا

واختطفوها ، بينما الجيران يرنون من المنازل

يرتعدون جسدا وروحا

لا يجرؤون أن يغيثوا سيفها الطريحا !

....

(سَاءَلَنِي كافور عن حزني

فقلت إنها تعيش الآن في بيزنطة

شريدةً.. كالقطة

تصيح «كافوراه.. كافوراه»..

فصاح في غلامه أن يشتري جارية رومية

تُجلد كي تصيح «واروماه.. واروماه»..

.. لكي يكون العين بالعين

والسنُّ بالسنّ) !

.. في الليل، في حضرة كافور، أصابني السأم

في جلستي نمتُ.. ولم أنم

حلمت لحظة بكا

وجندك الشجعان يهتفون: سيف الدولة.

وأنت شمس تختفي في هالة الغبار عند الجولة

ممتطياً جوادك الأشهب، شاهراً حسامك الطويل المهلكا

تصرخ في وجه جنود الروم

بصيحة الحرب، فتسقط العيونُ في الحلقوم!

تخوض، لا تبقي لهم إلى النجاة مسلكاً

تهوى، فلا غير الدماء والبكا

ثم تعود باسماً.. ومنهكاً

والصبية الصغار يهتفون في حلب:

«يا منقذ العرب».

«يا منقذ العرب»

حين تعود.. باسماً.. ومنهكاً

حلمتُ لحظة بكا

حين غفوتُ

لكنني حين صحوتُ :

وجدت هذا السيد الرخوا

تَصَدَّرَ البهوا

يقص في ندمانه عن سيفه الصارم

وسيفه في غمده يأكله الصدأ

وعندما يسقط جفناه الثقيلان ، وينكفئ..

يبتسم الخادم..!

.. تسألني جاريتي أن أكتري للبيت حرّاسا

فقد طغى اللصوص في مصر.. بلا رادع

فقلت : هذا سيفي القاطع

ضعيه خلف الباب. متراسا !

(ما حاجتي للسيف مشهورا

ما دمت قد جاورت كافورا)؟

.. «عيدٌ بأية حال عدت يا عيدُ؟

بما مضى؟ أم لأرضي فيك تهويد؟

«نامت نواطير مصر» عن عساكرها

وحَارَبَتْ بدلاً منها الأناشيد!

ناديت: يا نيل هل تجري المياه دماً

لكي تفيض، ويصحو الأهل إن نُودُوا؟

«عيد بأية حال عدت يا عيد»؟

(يونيو ١٩٦٨)

في انتظار السيف

وردةٌ في عروة السرَّةِ:

ماذا تلدين الآن؟

طفلاً.. أم جريمة؟

أم تنوحين على بوابة القدس القديمةْ

عادت الخيلُ من المشرق،

عاد (الحسنُ الأعصمُ) والموت المغير

بالرداء الأرجواني، وبالوجه اللصوصي،

وبالسيف الأجير

فانظري تمثالَه الواقفَ في الميدان

(يهتزُّ مع الريح)!

انظري من فرجة الشبَّاك :

أيدي صبيةٍ مقطوعةٌ..

مرفوعةٌ.. فوق السّنانْ

(.. مُرْدِفاً زوجتَه الحُبْلى على ظهر الحصانْ)

انظري خيطَ الدمِ القاني على الأرض :

«هنا مَرَّ.. هنا»

فانفقأت تحت خُطى الجند..

عيونُ الماءِ

واستلقت على التربةِ.. قاماتُ السنابل

آهِ.. ها نحن جياعُ الأرض نصطفُّ

لكي يلقى لنا عهدَ الأمان

بنقش السكة.. باسم الملك الغالب ،

يَرقى منبرَ المسجد..

بالسيف الذي يبقُرُ أحشاءَ الحوامل.

....

تلدين الآن مَنْ يحبو..

فلا تسنده الأيدي،

ومن يمشي.. فلا يرفع عينيه إلى الناس،

ومن يخطفُه النخّاسُ:

قد يصبح مملوكاً يلوطون به في القصر،

يُلقون به في ساحة الحرب..

لقاء النصر

هذا قدر المهزوم:

لا أرض.. ولا مال.

ولا بيتَ يردُّ البابَ فيه..

دون أن يطرقه جاب..

وجنديٌ رأى زوجتَه الحسناء في البيت المقابلْ

انظري أمّتكِ الأولى العظيمة

أصبحت : شرذمة من جثث القتلى ،

وشحّاذين يستجدون عطفَ السيف ،

والمالَ الذي ينثره الغازي..

فيهوي ما تبقى من رجال..

وأروقهْ

انظري..

لا تفزعي من جرعة الخزي ،

انظري..

حتى تقيئي ما بأحشائك..

من دفء الأمومة

....

تُقْفرُ الأسواقُ يومين..

وتعتاد على النقد الجديدْ

تشتكي الأضلاعُ يومين..

وتعتاد على السوط الجديد

وأنا منتظرُ.. جنب فراشك

جالسٌ أرقب في حمى ارتعاشك.

صرخة الطفل الذي يفتح عينيه..

على مرأى الجنود!

(يوليو ١٩٧٠)

الضحك في دقيقة الحداد!

... ووقفنا في العراء

ببقايا أغْمِدَةْ

انتظرنا أن يمرَّ الشعراءْ

ربما يمنحنا دفءُ الغناء

ربما.. ليلةَ حبٍّ واحدة.

وتنصَّتْنا لوقع الخطو، غربلْنا الهواء

لم يكن إلاّ.. سكون الصحراءْ

وطنين الأفئدةْ!

....

عامُ تحت.. الصفر.. صفْرَ اليد جاءْ

حين كنا في ضمير الليل روحا مجهدة.

طَرَقَ الباب، ونادى في حياء

فاستدرنا في فراش النوم،

أحكمنا الغطاء

وتركناه لهبّات الرياح الباردة.

....

كنتُ في المقهى، وكان الببّغاء

يقرأ الأنباء في فئران حقل القمحِ

فوق القَرَدَةْ

وهي تجتر النراجيلَ، وترنو للنساء.

....

(رفعُ أثمان جميع الأسمدة)

....

..النساءُ القططُ ـ الأفراس ـ سِمَّانُ العشاء

وعيونُ الرغبةِ الفئرانُ تبتلُّ بأصداء المواءْ

....

....

(رفع سعر الصوف).

.... ما من فائدة !

كادت السيارةُ الحمراءُ أن تقصم ظهر السيدة

والنساء ـ القططُ ـ الأزياء يخلعن الرداء

....

(ثائر يَقْتُلُ في طهرانَ بالأمسِ ـ رئيس الوزراء)

....

رقعة الشطرنج : مات الشاهُ ، دور الابتداءْ..

هزَم الأبيضُ فيه أسْودَه

حين كنّا في ضمير الليل روحاً مجهدةْ.

....

تلعقُ الفئرانُ في الجُحْر تُراب الإشتهاء

وهي تجترُّ النراجيلَ وترنو للنساء

النساءِ ـ القططِ الكسلى ،

....

.... (اشتباك عسكري في المساءْ)

برهة : ترتفع الأعينُ عن طاولة الزهر وموسيقى النساء

تَبْرقُ النظرةُ من تحت الجفون الخامدةْ

....

(مجلس الأمن يُوالي)..

...... ويعود الانحناء

تجلس العينُ على نقش البلاط القرفصاءْ

ثم تنساه وتطويها فنون العربدة ! !

قال لي :

«ها هو بهوُ الأعمدةْ»

....

من هنا مَرَّت خيول الخيلاء

من هنا مرت.. فلم يُدفن لها قتلى ،

ولم تحقن دماء

حطَّت الحدأةُ فوق المائدةْ

رفع النسر عن الشمس. يَدَهْ

فهوتْ، والأرضُ غطّاها الوباء.

....

نقشةُ الجدران في قلبي

وفي عيني الرمالُ الراقدةْ

الرمالُ الرابضاتُ ـ اليومَ ـ من حول البناءْ

الرمالُ ـ الندمُ الحارقُ لي خبزٌ وماء.

يا بقايا المومياءْ :

نحن أسبلنا العيون الرَّمِدَةْ

حين أنكرناك قبل الفجر..

(والفجر إلى اللحظة لم يأت ،)

وجاء..

بدلاً منه : الوباء،

كلما استشرَفَت النظرةُ أفق النور : شمَّتْ جسده....

فتراخت.. مُقعده،

وانتظرنا الصيف في فصل الشتاءْ

واغتسلنا ننشُدُ البُرءَ نهار الأربعاء

ودعونا الله أن يكشف عنا الغُمّة المنعقدةْ :

أعطنا ليلة حب واحدة

أعطنا ليلة طهر واحدة

أعطنا ليلة صدق واحدة

وتنسَّمْنا صدى الدعوةِ، غربلْنا الهواء

لم يكن إلا .. الوباء

جَرَباً تحت الجُلود :

الظّفْرُ لا يجدي..

ولا يجدي الدواء!

جَربٌ أوغلَ. حتى الأفئدة!!

....

ووقفنا في العراء

ببقايا أغمدة..

وتلفّتنا ، فأبصرنا عظام الشهداء

تتلوّى في رمال الصحراء

تقصد النيلَ.. لكي يمنحها جرعة ماء

فسقاها.. كَمَدَه !

ورأينا في مرايا مائه أوجهنا..

كنا عراة تعساء

خلفنا يصطكُّ باب المصيدة

.. والشفاه المرغياتُ المزبدةْ.

نتبارى في الهتافات ،

تدقّ المنضدةْ

ثم تنسلُّ إذا انفضَّ البكاء

نتلهى بالصدور الناهدةْ

في حوانيت الشواء

....

يا عصافير الشتاء :

لا تلوميني.. إذا الطوفانُ جاء

....

(١٩٦٩)

صلاة

أبانا الذي في المباحث. نحن رعاياكَ. باقٍ

لك الجبروتُ.. وباقٍ لنا الملكوتُ. وباقٍ لمن

تحرسُ الرَّهَبُوتْ.

....

تفردَّتَ وحدكَ باليسرِ ، إن اليمينَ لفي الخُسْرِ

أما اليسارُ ففي العُسْرِ. إلاّ. الذين يُمَاشونَ.

إلاّ الذين يعيشونَ يَحْشُونَ بالصحف المشتراةِ

العيونَ.. فيَعْشُونُ إلاّ الذين يَشُونَ. وإلاّ

الذين يُوَشُّون ياقات قمصانهم برباط السكوتْ !

تعاليتَ. ماذا يهمُّكَ ممن يذمُّكَ؟ اليوم يومك

يرقى السجين إلى سُدَّة العرش..

والعرشُ يصبح سجناً جديداً وأنتَ مكانكَ. قد

يتبدَّلُ رسمُكَ واسمُكَ. لكن جوهركَ الفردَ

لا يتحوّل. الصمتُ وشمكَ. والصمت وسْمُكَ

والصمت ـ حيث التَفَتَّ ـ يرين ويَسْمُكُ. والصمتُ

بين خيوط يديكَ المشبَّكتين المصمغتين يلفُّ

الفراشةَ.. والعنكبوتْ.

....

أبانا الذي في المباحث. كيف تموت.

وأغنية الثورة الأبدية

ليست تموت!؟

سفر الخروج

(أغنية الكعكة الحجرية)

(الاصحاح الأول)

أيُّها الواقفون على حافة المذبحة

أشهِرُوا الأسلحةْ

سقطَ الموتُ، وانْفَرط القلبُ كالمسبحةْ

والدمُ انساب فوقَ الوشاح،

والمنازلُ أضْرحةٌ،

والزنازن أضرحةٌ

والمدى... أضرحةٌ

فارفعوا الأسلحة

واتبعوني !

أنا ندَمُ الغدِ والبارحة

رايتي : عظمتَانِ... وجُمْجُمة ،

وشعاري : الصباح

(الاصحاح الثاني)

دقَّت الساعةُ الُمتعبةْ

رفعت أمَّه الطيبة

عيْنَها...

(دفعتهُ كُعوبُ البنادقِ في المركبة !)

....

دقت الساعةُ المتعبة

نهضتْ ، نسَّقت مكتبه..

(صفعتهُ يدٌّ..

(أدخلتْهُ يدُ اللهِ في التجربة ـ)

....

دقت الساعة المتعبةجلست أمُّه ، رتَقَتْ جَوْرَبَهْ..

(وخَزَتْهُ عيونُ المحقِّقِ..

حتى تفجَّرَ من جلده الدمُ والأجوبة !)

....

دقت الساعةُ المتعبةْ !

دقت الساعة المتعبةْ !

(الاصحاح الثالث)

عندما تهبطين على ساحة القوم ، لا تبْدئي بالسلامْ

فهمُ الآن يقتسمون صغارَك فوق صِحاف الطعام

بعد أن أشعلوا النار في العشِّ..

والقشِّ..

والسنبلة.

وغداً يذْبحونك.. بحثاً عن الكنز في الحوْصَلة!

وغداً تعتدي مُدُنُ الألفِ عامْ

مدناً.. للخيامْ

مدناً ترتقي دَرَجَ المقصلةْ!

(الاصحاح الرابع)

دقت الساعةُ القاسيةْ

وقفوا في ميادينها الجَهْمَةِ الخاويةْ

واستداروا على دَرَجاتِ النَّصبْ

شجراً من لهبْ

تعصف الريحُ بين وريقاته الغضة الدانيةْ

فيَئِنُّ: "بلادي.. بلادي"

(بلادي البعيدة)

....

دقت الساعةُ القاسيةْ

"انظروا" هتفتْ غانيةْ

تتمطّى بسيارة الرقم الجُمركي،

وتمتمت الثانية:

سوف ينصرفون إذا البردُ حلَّ... ورَانَ التعب

....

دقت الساعةُ القاسيةْ

كان مذياعُ مقهى يذيع أحاديثَه الباليةْ

عن دُعاة الشغبْ

وهُم يستديرون،

يشتعلون ـ على الكعكة الحجرية ـ حولَ النَّصُبْ

شمعدانَ غضَبْ

يتوهَّج في الليل

والصوتُ يكتسحُ العتمةُ الباقيةْ

يتغنى لليلة ميلادِ مصر الجديدة !

(الاصحاح الخامس)

أذكريني

فقد لوّثتني العناوين في الصُّحف الخائنة !

لوَّنتْني... لأني منذ الهزيمة لا لَون لي

(غير لون الصباغْ)

قبلَها كنتُ أقرأ في صفحة الرملِ

(والرملُ أصبح كالعملة الصعبةِ ،

الرملُ أصبح أبسطة... تحت أقدام جيش الدفاع

فاذكريني ، كما تذكرين المهربَ... والمطرب العاطفي

وكاب العقيد... وزينةِ رأس السنةْ.

اذكريني إذا نَسِيتْني شُهودُ العيانِ

ومضبطةُ البرلمان

وقائمةُ التُّهم المعلنةْ

والوداعَ !

الوداعْ !

(الاصحاح السادس)

دقت الساعةُ الخامسةْ

ظهرَ الجندُ دائرةً من دُروعٍ وخوذات حَربْ

ها هُم الآن يقتربون رويداً... رويداً...

يجيئون من كل صَوْبٍ

والمغنُّون ـ في الكعكة الحجرية ـ يَنْقبضونَ

وينفرجُونَ

كنبضة قلْبٍ

يُشعلون الحناجر،

يستدفئون من البرد والظلمةِ القارِسة

يرفعون الأناشيد في أوجه الحَرس المقتربْ

يشبكون أياديهمُ الغضَّة البائسة

لتصير سياجاً يصدُّ الرصاص !

الرصاص...

الرصاص...

وآه...

يُغنُّون : ((نحن فداؤُك يا مصرُ))

((نحن فداؤ...))

وتسقط حنجرة مُخْرَسَةْ

معها يسقطُ اسمكِ ـ يا مصرُ ـ في الأرض

لا يتبقّى سوى الجسد المتهشِّم والصرخاتِ

على الساحةِ الدامسةْ

دقت الساعةُ الخامسةْ

....

دقت الخامسة

....

دقت الخامسة

....

وتفرَّقَ ماؤكَ ـ يا نهر ـ حينَ بلَغْتَ المصَبْ!

* * * *

المنازلُ أضرحةٌ، والزنازنُ

أضرحةٌ، والمدى أضرحة

فارفعوا الأسلحة!

ارفعوا

الأسلحة

خاتمة

آه ... من يُوقفُ في رأسي الطواحينَ

ومن ينزعُ من قلبي السكاكينَ؟

ومن يقتل أطفالي المساكينَ...

لئلا يكبروا في الشقق المفروشة الحمراء

خدّامين...

مأبونين...

قوّادين...

من يقتلُ أطفالي المساكينَ؟

لكيلا يصبحوا ـ في الغد ـ شحاذينَ...

يستجدون أصحابَ الدكاكين

وأبوابَ المرابينَ

يبيعون السياراتِ أصحابِ الملايين.. الرياحينَ

وفي "المترو" يبيعونَ الدبابيسَ و"يس"

وينسلُّون في الليل يبيعون "الجَعَارينَ"

لأفواج الغزاة السائحين!

....

هذه الأرضُ التي ما وَعَدَ الله بها...

من خرجوا من صُلبها...

وانغرسوا في ترْبها...

وانطرحوا في حُبِّها...

مُسْتشهَدين!

....

فادخلوها "بسلام" آمنين!!

من أوراق "أبو نواس"

(الورقة الأولى)

"ملكٌ أم كتابة؟"

صاحَ بي صاحبي، وهو يُلقي بدرْهمه في الهواء

ثم يَلْقُفُهُ...

(خارجين من الدرس كُنّا.. وحبْرُ الطفولةِ فوق الرداءْ

والعصافيرُ تمرقُ عبرَ البيوتِ،

وتهبطُ فوق النخيل البعيد!)

....

"ملكٌ أم كتابة؟"

صاح بي... فانتبهتُ، ورفَّتْ ذبابةْ

حول عينين لامعتين...فقلتُ : "الكتابةْ"

...فتَحَ اليدَ مبتسماً ، كان وجه المليكِ السعيد

باسماً في مهابة !

* * *

"ملكٌ أم كتابة ؟"

صحتُ فيه بدوري...

فرفَرَفَ في مقلتيه الصبا والنجابة

وأجاب : "الملك"

دون أن يتلعثمَ... أو يرتبكْ

وفتحت يدي...

كان نقشُ الكتابة

بارزاً في صلابة !

دارت الأرض دورتها...

حملَتْنا الشواديفُ من هدأة النهر

ألقتْ بنا في جداول أرض العرابة

تتفرَّق بين حقول الأسى... وحقول الصبابة.

قطرتين ، التقيتا على سُلَّم القصرِ...

ذات مساءٍ وحيدْ

كنتُ فيه : نديمَ الرشيد

بينما صاحبي... يتولّى الحجابة ! !

(الورقة الثانية)

من يملكُ العملةَ يُمسكُ بالوجهين

والفقراءُ بينَ بينْ !

(الورقة الثالثة)

نائماً كنتُ جانبَه ، وسمعتُ الحرسْ

يوقظون أبي !

ـ خارجيٌّ

ـ أنا... !

ـ مارقٌ

ـ من؟ أنا!

صرخَ الطفلُ في صدر أمي

(وأمي محلولةُ الشعر واقفةٌ في ملابسها المنزلية)

ـ إخرسوا

واختبأنا وراءَ الجدارِ

ـ إخرسوا

وتسلل في الحلقِ خيطٌ من الدم

كان أبي يمسكُ الجرحَ،

يمسكُ قامته... ومَهابتَه العائلية!

ـ يا أبي

ـ اخرسوا

وتواريت في ثوب أمي، والطفلُ في صدرها ما نَبَسْ

ومضوا بأبي تاركين لنا اليتم متشحاً بالخرس

(الورقة الرابعة)

أيها الشعر... يا أيها الفرح المختَلسْ

....

كل ما كنتُ أكتبُ في هذه الصفحة الورقية

صادرته العسسْ

....

(الورقة الخامسة)

... وأمي خادمة فارسيةُ

يتناقلُ سادتها قهوةَ الجنسِ وهي تدير الحطبْ

يتبادلُ سادتها النظرات لأردافها...

عندما تنحني لتضيءَ اللهب

يتندّر سادتُها الطيبون بلهجتها الأعجمية!

* * *

نائماً كنت جانبَها، ورأيتُ ملاكَ القُدُسْ

ينحني ، ويُرَبِّتَ وجنَتيها

وتراخى الذراعان عليَّ قليلاً

وسارت بقلبي قُشَعْريرةُ الصمتِ

ـ أمي ، وعادَ لي الصوتُ

ـ أمي ، وجاوبني الموتُ

ـ أمي ، وعانقتها... وبكيت

وغامَ بي الدمعُ حتى احتَبسْ

*　*　*

(الورقة السادسة)

لا تسألني إن كان القرآن

مخلوقاً أو أزليّ

بل سلني إن كان السلطان

لصاً... أو نصفَ نبيّ

(الورقة السابعة)

كنت في كربلاءْ

قال لي الشيخ أن الحسينْ

ماتَ من أجل جرعةِ ماءْ

....

وتساءلتُ كيف السيوفُ استباحت بني الأكرمينْ

فأجاب الذي بصَّرته السماءْ

إنه الذهبُ المتلألئُ في كل عينْ

....

إن تكن كلماتُ الحسينْ

وسيوفُ الحسينْ

وجلالُ الحسينْ

سقَطَتْ دون أن تُنقذ الحقَّ من ذهب الأمراء

أفتقدر أن تُنقذ الحقَّ ثرثرةُ الشعراء

والفراتُ لسانٌ من الدم لا يجدُ الشفتينْ

*   *   *

ماتَ من أجل جرعة ماء

فاسقني يا غلام صباح مساء

اسقني يا غلام...

علني بالمدام...

أتناسى الدماء الدماء!

مقتل كليب

"الوصايا العشر"

... فنظر "كليب" حواليه وتحسر، وذرف دمعة وتعبّر، ورأى عبداً واقفاً فقال له: أريد منك يا عبد الخير، قبل أن تسلبني، أن تسحبني إلى هذه البلاطة القريبة من هذا الغدير، لأكتب وصيتي إلى أخي الأمير سالم الزير، فأوصيه بأولادي وفلذة كبدي...

فسحبه العبد إلى قرب البلاطة، والرمح غارس في ظهره، والدم يقطر من جنبه... فغمس "كليب" إصبعه في الدم، وخطّ على البلاطة وأنشأ يقول...

(قصة الأمير سالم الزير)

لا تصالح

(١)

لا تُصالحْ !

... ولو منحوكَ الذهبْ

أتُرى حين أفقأُ عينيكَ ، ثم أُثّبِتُ جَوهرتين مكانهما

هل تَرى...؟

هي أشياءُ لا تُشترى... :

ذكرياتُ الطفولة بين أخيكَ وبنيكَ

حسُّكمُا ـ فجأةً ـ بالرجولة ،

هذا الحياءُ الذي يكبتُ الشوقَ... حين تعانقُهُ

الصمتُ ـ مبتَسمينْ لتأنيب أمّكما...

وكأنّكما

ما تزالان طفلين!

تلك الطمأنينةُ الأبديةُ بينكما:

أن سيفانِ سيفَكَ...

صوتان صوتَكَ

أنك إنْ متَّ:

للبيت ربٌّ

وللطفل أبْ

هل يصيرُ دمي ـ بين عَينيكَ ـ ماءاً؟

أتنسى ردائي الملطّخ...

تلبسُ فوق دمائي ـ ثياباً مطّرزةً بالقصبْ؟

إنها الحربُ!

قد تثقلُ القلبَ...

لكنَّ خلْفكَ عارَ العرب.

لا تُصالح...

ولا تتوخَّ الهربْ!

(٢)

لا تُصالحْ على الدم... حتى بدَمْ

لا تصالح! ولو قيلَ رأسٌ برأسٍ،

أكُلُّ الرؤوسِ سَواءٌ؟!

أقلب الغريب كقلب أخيك؟!

أعيناه عينا أخيكَ؟!

وهل تتساوى يدٌّ... سيفُها كان لَكْ

بيدٍ سيفُها أثْكَلَكْ

سيقولون:

جئناكَ كي تحقن الدم...

جئناكَ كُنْ - يا أميرُ الحَكَمْ

سيقولون:

ها نحن أبناء عم

قل لهم : إنهم لم يُراعوا العمومةَ فيمن هَلك.

واغرس السيفَ في جبهة الصحراءِ...

إلى أن يُجيب العَدمْ

إنني كنتُ لكْ

فارساً

وأخاً

وأبا

ومَلِكْ

(٣)

لا تصالح...

ولو حرَمتْكَ الرقادْ

صرخاتُ الندامةْ

وتذكر...

(إذا لان قلبُكَ للنسوةِ اللابساتِ السواد ولأطفالهنَّ الذين تخاصِمُهم الابتسامة)

أنَّ بنت أخيك "اليمامة"

زهرةٌ تتسربلُ ـ في سنوات الصبا ـ

بثياب الحِدادْ

كنتُ، إن عدتُ:

تعدو على درج القصر،

تمسك ساقي عند نزولي...

فأرفعها ـ وهي ضاحكةٌ ـ

فوق ظهر الجواد

ها هي الآن ... صامتةٌ

حرمتها يدُ الغدرِ:

من كلمات أبيها،

ارتداء الثيابِ الجديدة،

من أن يكون لها ـ ذات يوم ـ أخٌّ!

من أبٍ يتبسَّمُ في عرسها...

وتعودُ إليه إذا الزوجُ أغضبها...

وإذا زارها... يتسابق أحفاده نحو أحضانه،

لينالوا الهدايا...

ويلهوا بلحيته (وهو مستسلمٌ)

ويشدُّوا العمامة.

لا تصالحْ!

فما ذنب تلك اليمامة

لترى العشَّ محترقاً... فجأةً،

وهي تجلس فوق الرمادْ؟!

لا تصالحْ

ولو توّجوك بتاج الإمارة.

كيف تخطو على جثةِ ابن أبيكَ..؟

وكيف تصيرُ المليكَ

على أوْجُهِ البهجة المستعارة؟

كيف تنظر في يدِ من صافحوكَ

فلا تُبصرُ الدم..

في كلِّ كفْ؟

إن سهماً أتاني من الخلفْ..

سوف يجيئكَ من ألف خلفْ.

فالدم ـ الآن ـ صار وساماً وشارةْ

لا تُصالح،

ولو توّجوك بتاج الإمارة

إن عَرشكَ: سيفٌ

وسيفكَ: زيفٌ

إذا لم تَزِنْ ـ بذؤابته ـ لحظات الشرف

واستبطت الترف

(٥)

لا تصالح

ولو قال مَنْ مَالَ عندَ الصدامْ

"ما بنا طاقةٌ لا متشاقِ الحسامْ.."

عندما يملأُ الحقُّ قلبَكَ :

تندلع النارُ إن تتَنفَّسْ

ولسانُ الخيانةِ يخرسْ

لا تصالحْ،

ولو قيلَ ما قيلَ من كلمات السلامْ

كيف تستنشقُ الرئتانِ النسيمُ المُدَّنَّسْ؟

كيف تنظر في عيني امرأةٍ..

أنتَ تعرف أنك لا تستطيع حمايتها في الظلام؟

كيف تصبح فارسها في الغرام؟

كيف ترجو غداً.. لصبي ينام

كيف تحلم أو تتغنى بمستقبل لغلام

وهو يكبر ـ بين يديك ـ بقلب منكَّسْ؟

لا تصالحْ

ولا تقتسم مع من قتلوك الطعام.

وأروِ قلبك بالدم..

وأروِ الترابَ المقدس

وأروِ أسلافك الراقدين..

إلى أن تُجيبَ العظامْ!

(٦)

لا تصالحْ

ولو ناشَدَتْكَ القبيلةْ

باسم حُزْنِ "الجليلة"

أن تسوقَ الدهاءَ،

وتُبدي ـ لمن قصَدوكَ ـ القبُولْ.

ها أنتَ تطلبُ ثأراً يطولْ.

فخُذْ ـ الآن ـ ما تستطيعُ :

قليلاً من الحقِّ...

في هذه السنوات القليلة.

إنه ليسَ ثأركَ وحدَك ،

لكنه ثأر جيلٍ فجيل.

وغداً

سوف يُولد من يلبسُ الدِرعَ كاملةً ،

يُوقدُ النارَ شاملةً ،

يطلب الثأرَ

يُسْتَولَدُ الحقّ ،

من أضلع المستحيلْ.

لا تصالح

ولو قيل إن التصالحَ حيلةْ

إنه الثأرُ.

تُبهَتُ شُعلتهُ في الضلوعِ

إذا ما توالت عليها الفصول

ثم تبقى يدُ العارِ مرسومةً (بأصابعها الخمس)

فوق الجباه الذليلة!

(٧)

لا تصالح، ولو حذّرتْكَ النجوم

ورمى لك كهانها بالنبأ..

كنتُ أغفِرُ لو أنني مِتُّ..

ما بين خيطِ الصوابِ وخيط الخطأ.

لم أكن غازياً،

لم أكن أتسللُ قربَ مضارِبِهمْ

أو أحومُ وراء التخومْ

لم أمدَّ يداً لثمار الكرومْ

أرضَ بستانِهم لم أطأ

لم يَصِحْ قاتلي بي : "انتبه" !

كان يمشي معي..

ثم صافحني..

ثم سار قليلاً..

ولكنه في الغضُون اختبأ !

فجأةً :

ثقبتني قشعريرةُ بين ضلعين..

واهتز قلبي كفُقاعةٍ وانفثأْ

وتحاملتُ ، حتى ارتكزتُ على ساعديّ

فرأيتُ : ابن عمي الزنيم

واقفاً يتشفى بوجهٍ لئيمْ

لم يكن في يدي حربةٌ ،

أو سلاحٌ قديم ،

لم يكن غيرُ غيظي الذي يتشكى الظمأ

(٨)

لا تصالحْ،

إلى أن يعودَ الوجودُ لدورته الدائرة:

النجوم.. لميقاتها

والطيورُ.. لأصواتها

والرمالُ.. لذراتها

والقتيل لطفلته الناطره.

كلُّ شيءٍ تحطَّمَ في لحظةٍ عابرة:

الصبا - بهجةُ الأهل - صوتُ الحصان - التّعرُّفُ بالضيف - همهمةُ القلب حين

يرى برعماً في الحديقة يذوي - الصلاةُ لكي ينزل المطرَ الموسمي - مراوغة

القلب حين يرى طائر الموت

وهو يرفرفُ فوق المبارزة الكاسرةْ

كلُّ شيء تحطم في نزوةٍ فاجرة.

والذي اغتالني : ليس ربّاً..

ليقتلني بمشيئته

ليس أنْبلَ مني.. ليقتلني بسكينته ،

ليس أمهر مني.. ليقتلني باستدارتهِ الماكرةْ

لا تصالحْ ،

فما الصلحُ إلا معاهدةٌ بين ندَّينِ..

(في شرف القلب)

لا تُنتَقص

والذي اغتالني محْضُ لصْ

سَرق الأرضَ من بين عيني

والصمتُ يُطلقُ ضحكته الساخرة !

(٩)

لا تصالحْ ،

ولو وقفَتْ ضدَّ سيْفكَ كلُّ الشيوخْ ،

والرجال التي ملأتها الشروخْ ،

هؤلاء الذين يُحبُّون طعم الثريدْ ،

وامتطاءَ العبيدْ ،

هؤلاء الذين تدلَّت عمائمهم فوق أعينهم ،

وسيُوفُهم العربية قد نسِيَتْ سنوات الشموخ

لا تصالحْ

فليس سوى أن تريدْ

أنت فارسُ هذا الزمان الوحيدْ

وسواكَ.. المسوخ !

(١٠)

لا تصالحْ

لا تصالح !

نوفمبر ١٩٧٦

الورقة الأخيرة

الجنوبي

صورة

هل أنا كنت طفلاً..

أم أنّ الذي كان طفلاً سواي؟

هذه الصورُ العائليةُ..

كان أبي جالساً، وأنا واقفٌ.. تتدلى يداي!

رفسةٌ من فرسْ

تركت في جبيني شجاً، وعلّمتِ القلب أن يحترس.

أتذكرْ..

سال دمي

أتذكرُ

مات أبي نازفاً.

أتذكرُ..

هذا الطريق إلى قبره..

أتذكرُ

أختي الصغيرةَ ذات الربيعينِ.

لا أتذكر حتى الطريق إلى قبرها

المنطمس

أو كان الصبيُّ الصغير أنا؟

أم ترى كان غيري

أحدّقُ..

لكن تلك الملامح ذات العذوبة.

لا تنتمي الآن لي.

والعيون التي تترقرق بالطيبة

الآن لا تنتمي لي.

صرتُ عني غريباً.

ولم يتبق من السنوات الغريبة

إلاّ صدى اسمي..

وأسماءُ من أتذكرهم ـ فجأة ـ

بين أعمدة النعيِّ

أولئك الغامضون: رفاق صباي.

يقبلون من الصمت وجهاً فوجها..

فيجتمع الشملُ كلَّ صباح،

لكي نأتنس.

وجه

كان يسكن قلبي

وأسكن غرفتهُ

نتقاسم نصفَ السرير،

ونصف الرغيف،

ونصف اللفافة،

والكتب المستعارةْ

هجرتْه حبيبته في الصباح فمزَّق شريانه في المساء،

ولكنه بعد يومين مزّقَ صورتها..

واندهشْ.

خاض حربين بين جنود المظلات..

لم ينخدش.

واستراح من الحرب

عاد ليسكن بيتاً جديداً

ويكسب قوتاً جديداً

يدخن علبة تبغ بكاملها

ويجادل أصحابه حول أبخرة الشاي..

لكنه لا يطيل الزيارة.

عندما احتقنت لوزتاه، استشار الطبيبَ

وفي غرفة العمليات..

لم يصطحب أحداً غير خُفٍّ

فجأة مات!

وأنبوبة لقياس الحرارة،

فجأة مات!

لم يحتمل قلبه سريان المخدر،

وانسحبت من على وجهه سنوات العذابات،

عاد كما كان طفلاً..

يشاركني في سريري

وفي كسرة الخبز، والتبغ،

لكنه لا يشاركني.. في المرارة!

وجه

من أقاصي الجنوب أتى، عاملاً

للبناء

كان يصعد "سقالة" ويغني لهذا الفضاء

كنت أجلس خارج مقهى قريب،

وبالأعين الشاردة..

كنت أقرأ نصف الصحيفة ،

والنصفَ أخفى به وسخ المائدة.

لم أجد غير عينين لا تبصران..

وخيطَ الدماء

وانحنيتُ عليه.. أجس يده

قال آخر : لا فائدةْ

صار نصفُ الصحيفةِ كلَّ الغِطاءْ

وأنا.. في العراء

وجه

ليت "أسماءَ" تعرف أن أباها صعَدْ

لم يمتْ

هل يموت الذي كان يحيا

كأن الحياة أبدْ !

وكأن الشراب نفدْ !

وكأن البناتِ الجميلات يمشين فوق الزبدْ !

عاش منتصباً، بينما

ينحني القلبُ يبحث عما فقدْ

ليت "أسماءَ" تعرف أن أباها الذي..

حفظ الحبُ والأصدقاءُ تصاويرَه..

وهو يضحكُ،

وهو يفكرُ

وهو يفتش عما يقيم الأودْ

ليت "أسماءَ" تعرف أن البناتِ الجميلاتِ..

خبّأنه بين أوراقهن،

وعلّمنه أن يسير..

ولا يلتقي بأحدْ!

مرآة

ـ هل تريد قليلاً من البحر؟

ـ إن الجنوبي لا يطمئن إلى اثنين يا سيدي:

البحر ـ والمرأة الكاذبة

ـ سوف آتيك بالرمل منه

... وتلاشى به الظل شيئاً فشيئاً ،

فلم أستبنه

ـ هل تريدُ قليلاً من الخمر؟

ـ إن الجنوبي يا سيدي يتهيب شيئين :

قنينة الخمر ـ والآلة الحاسبةْ.

ـ سوف آتيكَ بالثلج منه.

وتلاشى به الظل شيئاً فشيئاً..

فلم أستبنه.

بعدها لم أجدْ صاحبيَّ

لم يعد واحدٌ منهما لي بشيء

ـ هل تريد قليلاً من الصبر؟

ـ لا ..

فالجنوبي يا سيدي يشتهي أن يكون الذي لم يكنْه

يشتهي أن يلاقي اثنين :

الحقيقةَ ـ والأوجه الغائبة.

زهور

وسلال من الوردِ ،

ألمحها بين إغفاءةٍ وإفاقةْ

وعلى كل باقة

اسم حاملها في بطاقة

....

تتحدث لي الزهراتُ الجميلةُ

أن أعينَها اتسعت ـ دهشةً ـ

لحظة القطف ،

لحظةَ القصفِ ،

لحظةَ إعدامها في الخميلةْ !

تتحدث لي..

أنها سقطت من على عرشها في البساتين

ثـم أفاقـت علـى عَرضـها في زجـاج الـدكاكين أو بـين أيـدي المنادين،

حتى اشترتها اليدُ المتفضلةُ العابرةْ

تتحدث لي..

كيف جاءت إليَّ

(وأحزانها الملكيةُ ترفع أعناقها الخضرَ)

كي تتمنى ليَ العمرَ!

وهي تجود بأنفاسها الآخرة!!

كلُّ باقةْ..

بين إغماءةٍ وإفاقةْ

تتنفس مثليَ ـ بالكاد ـ ثانيةً.. ثانيةْ

وعلى صدرها حملَت ـ راضيةْ..

اسمَ قاتلها في بطاقةْ!

الخيول

(١)

الفتوحات ـ في الأرض ـ مكتوبة بدماء الخيول

وحدود الممالك

رسمتها السنابكْ

والركابان : ميزانُ عدلٍ يميل مع السيف

حيث يميلْ !

* * *

اركضي أو قفي الآن.. أيها الخيلُ :

لستِ المغيراتِ صُبحا

ولا العاديات ـ كما قيل ـ ضَبْحا

ولا خضرة في طريقك تمحى

ولا طفل أضحى

إذا ما مررت به.. يتنحى،

وها هي كوكبةُ الحرس الملكي..

تجاهد أن تبعث الروح في جسد الذكريات

بدق الطبول.

اركضي كالسلاحف

نحو زوايا المتاحف

صيري تماثيلَ من حجر في الميادين

صيري أراجيح من خشب للصغار ـ الرياحينَ،

صيري فوارس حلوى بموسمك النبويّ،

وللصبية الفقراء: حصاناً من الطين

صيري رسوماً.. ووشماً

تجف الخطوط به

مثلما جفَّ ـ في رئتيك ـ الصهيل !

(٢)

كانت الخيل ـ في البدء ـ كالناس

بريةً تتراكض عبر السهول

كانت الخيل كالناس في البدء...

تمتلك الشمسَ والعشبَ

والملكوت الظليل

ظهرُها.. لم يوطّأ لكي يركبَ القادةُ الفاتحون ،

ولم يلن الجسدُ الحر تحت سياط المروّضِ

والفم لم يمتثل للجام ،

ولم يكن الزادُ.. بالكادِ ،

لم تكن الساق مشكولةً ،

والحوافزُ لم يكُ يثقلها السنبكُ المعدنيُّ الصقيلْ.

كانت الخيل بريةً

تتنفس حريةً

مثلما يتنفسها الناسُ

في ذلك الزمن الذهبي النبيل

* * *

اركضي.. أوقفي

زمنٌ يتقاطعُ

واخترتِ أن تذهبي في الطريق الذي يتراجعُ

تنحدر الشمس

ينحدر الأمس

تنحدر الطرق الجبليةُ للهوة اللانهائية :

الشهب المتفحمةُ

الذكريات التي أشهرت شوكها كالقنافذ

والذكريات التي سلخ الخوفُ بشرتها.

كل نهر يحاول أن يلمس القاع

كل الينابيع إن لمست جدولاً من جداولها

تختفي

وهي.. لا تكتفي..

فاركضي أو قفي

كل درب يقودك من مستحيل إلى مستحيل

(٣)

الخيولُ بساطٌ على الريح..

سار ـ على متنه ـ الناسُ للناس عبر المكانْ

والخيولُ جدار به انقسم

الناسُ صنفين :

صاروا مشاةً.. وركبانْ

والخيولُ التي انحدرت نحو هوَّةِ نسيانها

حملت معها جيلَ فرسانها

تركتْ خلفها : دمعةَ الندم الأبديَّ

وأشباح خيل

وأشباهَ فرسان

ومشاة يسيرون ـ حتى النهاية ـ تحت ظلالْ الهوانْ.

اركضي للقرارْ

واركضي أو قفي في طريق الفرارْ

تتساوى محصلةُ الركضِ والرفضِ في الأرض،

ماذا تبقى لك الآن،

ماذا

سوى عرق يتصبب من تعبٍ

يستحيل دنانيرَ من ذهب

في جيوبُ هواةِ سلالاتك العربية

في حلبات المراهنة الدائرية

في نزهة المركبات السياحية المشتهاةِ

وفي المرأة الأجنبية تعلوك تحت

ظلال أبي الهول..

(هذا الذي كسرت أنفَهُ

لعنةُ الانتظار الطويل)

(٤)

استدارت ـ إلى الغرب ـ مزولةُ الوقتْ

صارت الخيلُ ناساً تسيرُ إلى هوَّةِ الصمتْ

بينما الناس خيلٌ تسير إلى هوة الموتْ !



مقابلة خاصة مع ابن نوح

جاء طوفانُ نوح !

....

المدينةْ تغرقُ شيئاً.. فشيئاً

تفرُّ العصافير،

والماء يعلو

على درجات البيوتِ ـ الحوانيت ـ مبنى البريد ـ البنوك ـ التماثيل (أجدادنا الخالدين) ـ المعابد ـ أجولة القمح ـ مستشفيات الولادة ـ بوابة السجن ـ دار الولاية ـ أروقة الثكنات الحصينة.

العصافير تجلو..

رُويداً..

رُويداً..

ويطفو الإوزُ على الماء،

يطفو الأثاث..

ولعبةُ طفل..

وشهقةُ أم حزينةْ

والصبايا يلوِّحن فوق السطوحْ!

جاء طوفان نوحْ.

ها هُم "الحكماء" يفرُّون نحو السفينةْ

المغنونَ ـ سائس خيلِ الامير ـ المرابونَ ـ قاضي القضاةِ

(.. ومملوكُهُ!) ـ

حاملُ السيفُ ـ راقصةُ المعبدِ

(ابتهجتْ عندما انتشلتْ شعرَها المستعارْ

ـ جباةُ الضرائبِ ـ مستوردو شحناتِ السلاحِ ـ عشيق

الاميرة في سمته الأنثوي الصبوحْ!

جاء طوفان نوحْ.

ها هم الجبناءُ يفرون نحو السفينة.

بينما كنتُ..

كان شباب المدينةْ

يلجمون جوادَ المياه الجموحْ

ينقلون المياهَ على الكتفين.

ويستبقون الزمنْ

يبتنونَ سدود الحجارة

عَلَّهمُ ينقذون مهاد الصبا والحضارة

علَّهمُ ينقذونَ.. الوطنْ!

ـ.. صاح بي سيدُ الفلكِ ـ قبل حلول

السكينةْ:

"انجُ من بلدٍ.. لم تعدْ فيه روحْ!

قلتُ:

طوبى لمن طعموا خبزه ـ.

في الزمان الحسنْ

وأداروا له الظهرَ

يوم المحنْ !

ولنا المجد ـ نحن الذين وقفنا

(وقد طمس الله أسماءنا !)

نتحدى الدمارَ..

ونأوي إلى جبل لا يموتُ

(يسمونه الشعب)

نأبى الفرار..

ونأبى النزوحْ !

....

....

....

كان قلبي الذي نسجته الجروحْ

كان قلبي الذي لعنته الشروح

يرقد ـ الآن ـ فوق بقايا المدينةْ

وردة من عطنْ

هادئاً..

بعد أن قال "لا" للسفينة

.. وأحبَّ الوطن!

لعبة النهاية

في الميادين يجلس ،

يطلق ـ كالطفل ـ نبلته بالحصى

فيصيب بها من يصيب من السابلة !

يتوجه للبحر ،

في ساعة المدِّ :

يطرح في الماء سنارة الصيد ،

ثم يعود..

ليكتب أسماء من علقوا

في أحابيله القاتلةْ !

لا يحبُّ البساتين..

لكنه يتسلل من سورها المتآكلِ،

يصنع تاجاً:

جواهرُهُ.. الثمرُ المتعفنُ،

إكليلهُ.. الورق المتغضن

يلبسه فوق طوق الزهور

الخريفيةِ

الذابلةْ!

يتحول: أفعى.. ونايا

فيرى في المرايا:

جسدين وقلبين متحدين،

(تغيم الزوايا

وتحكي العيونُ حكايا)

فينسلُّ بينهما..

مثل خيطٍ من العرق المتفصِّد،

يلعقُ دفءَ مسامهما،

يغرسُ النابَ في موضع القلب :

تسقط رأسُ الفتى في الغطاء ،

وتبقى الفتاة..

محدّقة

ذاهلةْ..!

أمس : فاجأته واقفاً بجوار سريري

ممسكاً ـ بيدٍ ـ كوبَ ماءْ

ويدٍ ـ بحبوب الدواء

فتناولتها..!

كان مبتسماً

وأنا كنت مستسلماً

لمصيري !!



عشاء

قصدتهم في موعد العشاء

تطلعوا لي برهة ،

ولم يرد واحد منهم تحية المساء !

... وعادت الأيدي تراوح الملاعق الصغيرة

في طبق الحساء

....

نظرت في الوعاء :

هتفت : "ويحكم.. دمي

هذا دمي.. فانتبهوا"

.. ولم يأبهوا !

وظلت الأيدي تراوح الملاعق الصغيرة

وظلت الشفاه تلعق الدماء !

السرير

أوهموني بأن السريرَ سريري !

أن قاربَ "رعْ"

سوف يحملني عبر نهر الأفاعي

لأُولدَ في الصبح ثانية.. إن سطع

(فوق الورق المصقول

وضعوا رقمي دون اسم

وضعوا تذكرةَ الدمْ

واسم المرض المجهول)

أوهموني فصدَّقتُ..

(هذا السريرْ

ظنني ـ مثله ـ فاقدَ الروح

فالتصقت بي أضلاعه

والجماد يضمُّ الجمادَ ليحميَهُ من مواجهةالناس !)

صرت أنا والسريرْ...

جسداً واحداً.. في انتظار المصيرْ!

(طوال الليلات الألف

والأذرعةُ المعدنْ

تلتفُّ وتتمكن

في جسدي حتى النزف)

صِرتُ أقدرُ أن أتقلّبَ في نومتي واضطجاعي

أن أحركَ نحو الطعام ذراعي..

واستبان السرير خِداعي

فارتعش !

وتداخل ـ كالقنفذ الحجري ـ على صمته وانكمش

قلتُ : يا سيدي.. لِمَ جافيتني ؟

قال : ها أنت كلمتني..

وأنا لا أجيب الذين يمرون فوقي

سوى بالأنين

فالأسرَّةُ لا تستريح إلى جسد دون آخر

الأسرَّةُ دائمه

والذين ينامون سرعان ما ينزلونْ

نحو نهر الحياة لكي يسبحوا

أو يغوصوا بنهر السكونْ

ديسمبر

(١)

تتساقط أوراقُ "ديسمبر الباهتة !

....

هو عَمْرٌ من الريح

(هذا الذي بين أن تترك الورقةُ الغصنَ

حتى تلامسَ أطرافُها حافة الأرض)

فافترش جواري ـ أيتها الباحثات عن الذات ـ

وجهَ التراب

وتعالينَ.. نروِ الأقاصيص..

عن راحة الروح

عن لذة الاغترابْ

وعبودية الأغصن الثابتة.

(٢)

أخذوا أصدقائي للسجن ،

لكنهم في ليالي الحنين

يقبلون ، لنشرب كأسين..

في البار ذي الردهة الخالية

فإذا دقت الساعةُ الثانية

صفّقَ الخدمُ المتعبون

فاختفى أصدقائي وهم يضحكون

ـ نلتقي ثانية

ـ نلتقي الليلة التالية

....

بعدها خرجوا : انقطع الخيط ما بيننا

واستطال السكون

كان ما بينهم : ذكرياتٌ.. وخبز مريرٌ

ومسحة حزن

قلت : ها أصبحوا ورقاً ثابتاً في شجيرة سجن

فمتى يفلتونَ

من الزمن المتوقف في ردهات الجنون؟

(٣)

ها هو الرخُّ ذو المخلبين يحوم..

ليحمل جثة ديسمبَر الساخنةْ

ها هو الرخُّ يهبطُ..

والسحب تلقي على الشمس طرحتها الداكنة

قالت الراهباتُ

(سلامٌ على الأرض)!

يا أيها الرخُّ : كم جثةً حملتك مخالبك الأبدية خلف الجبلْ؟

ما الذي نحن نعطيكَ ـ يا أيها الرخ ـ منذ الأزلْ؟

ما الذي نحن نعطيكَ؟

لا شيء إلاّ توابيت، لا شيء،

إلاّ المبادلة الخائبة.

جثثٌ تتراكم في الضفة الساكنة

بينما نحن ـ نمتلك النورَ ـ

عشبَ البحيرات ـ صوت الكناريا ـ

مجالسةَ الورد ـ أنشودةَ المهد ـ رقصَ

البنات الصغيرات في العرس ـ تمتمةَ

القطّ في الصلوات ـ خرير الينابيع ـ

هذا التساؤلَ عن لون عينين عاشقين،

كنافذتين على البحر ـ طعمَ القبلْ،

بينما أنت من ظلمة العدم الآسنةْ

تتلقى النفاياتِ تلو النفاياتِ دون كللْ

عاجزاً عن ملامسة الفرح العذب،

على أن تبلَّ جناحك في مطر القلب

أن تتطهر بالرقة الفاتنهْ ! !

(٤)

قلت للورق المتساقط من ذكريات الشجرْ

إنني أترك الآن ـ مثلك ـ بيتي القديم

حيث تلقي بي الريحُ أرسو

وليس معي غيرُ:

حزني المقيم

وجوازُ السفر !

إلى صديقة دمشقية

إذا سباكِ قائدُ التتار

وصرتِ محظية....

فشد شعراً منك في سعار

وافتض عذرية..

واغرورقت عيونك الزرق السماوية

بدمعة كالصيف ، ماسية

وغبت في الأسوار ،

فمن ترى يفتح عين الليل بابتسامة النهار؟

* * *

ما زلتِ رغم الصمت والحصار

أذكر عينيك المضيئتين من خلف الخمار

وبسمة الثغر الطفولية

أذكر أمسياتنا القصار

ورحلة السفح الصباحية

حين التقينا نضرب الأشجار

ونقذف الأحجار

في مساء فسقية !

* * *

قلتِ ـ ونحن نسدل الأستار

في شرفة البيت الأمامية

لا تبتعد عني

أنظر إلى عيني

هل تستحق دمعةً من أدمع الحزن؟

ولم أجبك ، فالمباخر الشآمية

والحب والتذكار

طغت على لحني

لم تبق مني وهم ، أغنية !

وقلتُ ، والصمت العميق تدقه الأمطار

على الشوارع الجليدية :

عدتُ إليك.. بعد طول التيه في البحار

أدفن حزني في عبير الخصلات الكستنائية

أسير في جناتك الخضر الربيعية

أبلُّ ريق الشوق من غدرانها ،

أغسل عن وجهي الغبار ! !

نافحتُ عنك قائد التتار

رشقتُ في جواده.. مدية

لكنني خشيت أن تَمسَّكِ الأخطار

حين استحالت في الدجى الرؤية

لذا استطاع في سحابة من الغبار

أن يخطف العذراء.. تاركاً على يدي الأزرار

كالوهم ، كالفرية

....

....

(.. ما بالنا نستذكر الماضي ، دعي الأظفار..

لا تنبش الموتى ، تعري حرمة الأسرار..)

* * *

يا كم تمنت زمرة الأشرار

لو مزّقوا تنورة في الخصر بُنيّة

لو علموك العزف في القيثار

لتطربيهم كل أمسية

حتى إذا انفضت أغانيك الدمشقية

تناهبوك ، القادة الأقزام.. والأنصار

ثم رموك للجنود الانكشارية

يقضون من شبابك الأوطار !

الآن.. مهما يقرع الإعصار

نوافذ البيت الزجاجية ،

لن ينطفي في الموقد المكدود رقص النار

تستدفئ الأيدي على وهج العناق الحار

كي توقد الشمس التي تختار

في وحشة الليل الشتائية !

نجمة السراب

صديقتي شدت على يدي..

وقالت : لن أزور غرفتك

إن شئت.. فلنبقَ معاً إلى الأبدْ

ولم أردّ

لأن ثوب العرس ـ في معارض الأزياء ـ

نجمة تدور في سراب

ولم أزل أدق باباً بعد باب

وخطوتي تنهيدي ، وأعيني ضباب

حتى بلغت غرفتي في آخر المطاف

وقطتي تلدْ..

مواؤها : عذاب أنثى في ليلة المخاضْ

أنثى وحيدة.. تلدْ..

وأخلد الجيران للسكون

وقطهم يجلس ـ في الشباك ـ ناعس العيون

يلعقُ في فرائه المنقط البياض

سعت إليه ذات ليلةٍ ،

ولم تسلْهُ ثوباً للزفاف !

لأن ثوبَ العرس

ـ في معارض الأزياء ـ

نجمة تدور في سراب ! !

أيدوم النهر

أيدوم لنا بستان الزهر

والبيت الهادئ عند النهر

أن يسقط خاتمنا في الماء

ويضيع.. يضيع مع التيار

وتفرقنا الأيدي السوداء..

ونسير على طرقات النار

لا نجرؤ تحت سياط القهر

أن نلقي النظرة خلف الزهر

ويغيب النهر

أيدوم لنا البيت المرح

نتخاصم فيه ونصطلح

دقات الساعة والمجهول

تتباعد عني حين أراك

وأقول لزهر الصيف.. أقول

لو ينمو الورد بلا أشواك

ويظل البدر طوال الدهر

لا يكبر عن منتصف الشهر

آه يا زهر..

لو دمت لنا..

أو دام النهر

خطاب غير تاريخي على قبر صلاح الدين

ها أنتَ تسترخي أخيراً..

فوداعاً..

يا صلاح الدين..

يا أيها البطل البدائي الذي تراقصَ الموتى

على إيقاعه المجنون.

يا قارب الفلين

للعرب الغرقى الذين شتّتهمْ سُفن القراصنة

وأدركتهم لعنة الفراعنة

وسنة.. بعد سنة..

صارت لهم "حطين"

تميمةَ الطفلِ، واكسير الغد العنين

(جبل التوباد حيّاك الحيا)

وسقى الله ثرانا الأجنبي)!

مَرَّتْ خيولُ الترك

مرَّت خيولُ الشّرك

مرت خيول التتر الباقينْ

ونحن - جيلاً بعد جيل - في ميادين المراهنة

نموت تحت الأحصنةْ!

وأنت في المذياع، في جرائد التهوين

تستوقف الفارين

تخطب فيهم صائحاً: "حطين"..

وترتدي العقال تارةً،

وترتدي ملابس الفدائيين

وتشربُ الشايَ مع الجنود

في المعسكرات الخشنة

حتى تسترد المدنَ المرتهنه

وتطلقُ النارَ على جوادكَ المسكين

حتى سَقَطْتَ ـ أيها الزعيم

واغتالتك أيدي الكهنة!

(وطني لو شُغلتُ بالخلدِ عنه..)

(نازعتني ـ لمجلس الأمن ـ نفسي)!

نَمْ يا صلاح الدين

نَمْ.. تتدلى فوق قبرك الورودُ..

ونحن ساهرون في نافذة الحنينْ

نقشّرُ التفاح بالسكين

ونسأل الله "القروض الحسنة"!

فاتحة:

آمين.

مصادر ومراجع الكتاب

- سيرة أمل دنقل الجنوبي، عبلة الرويني، منشورات دار سعاد الصباح، الطبعة الأولى ١٩٩٢.
- الشعر العربي الحديث من احمد شوقي إلى محمود درويش، د.ميشال خليل جحا، دار العودة ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٩٩٤.
- أمل دنقل الأعمال الشعرية الكاملة، دار العودة ـ بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٥.
- يحدثونك عن أنفسهم، ج٣، هاني الخير، دمشق ١٩٨٤.
- البنيات الدالة في شعر أمل دنقل، عبد السلام المسّاوي، منشورات اتحاد الكتّاب العرب ـ دمشق ١٩٩٤.
- التراث الإنساني في شعر أمل دنقل، د.جابر قميحة، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع ـ القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٨٧.
- شاعر وقصيدة (مختارات شعرية)، العماد مصطفى طلاس، المجلد الثاني، منشورات دار طلاس ـ دمشق، ط٢، ١٩٨٥.
- العرف الطيّب في شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، الشيخ ناصيف اليازجي، دار القلم ـ بيروت، بدون تاريخ.
- الشعر العربي المعاصر: قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، د.عز الدين اسماعيل، دار الفكر العربي ـ القاهرة، ط٣.
- الزير سالم، عمر أبو النصر، مؤسسة المعارف ـ بيروت ١٩٩٧.
- من أعلام الفكر العربي والعالمي في القرن العشرين، سليمان سعد الدين، مراجعة وتقديم هاني الخير، دمشق ١٩٧٥.

الفهرس